مجلة العلوم الحديثة والتراثية ، 2013 ، 1 (3) : 399 – 423 .
http://www.jmsh.eu

الذات الثقافية العربية المأزومة بين الاستبعاد والانعزال

أفراح جاسم محمد
كلية التربية الاساسية / الجامعة المستنصرية
draf_2009@yahoo.com

الخلاصة

لا يمكن القول إن الذات العربية المتجذرة في الثقافة العربية لا تعاني رواسبٍ من التصدع والتمزق ، ولا يمكن رسم صورة لها على إنها تعيش عصراً ذهبياً ، فلسان حال الذات الثقافية العربية يقول إنها كانت وما زالت تعاني من اطرٍ حاولت سلخ هذه الذات عن جذورها ومحتواها الأصيل ، وإفراغها من معطياتها العقلانية، واستبدالها بقوالبٍ معلبة استقدمت من الخارج العربي، لغرض إلغاء هويتها ومسخها وتقزيم أصولها وأجيالها ، لذلك باتت الذات الثقافية العربية اليوم تأن من ويلات الاستبعاد الاجتماعي الممنهج ، الذي تمثل بالثقافات الوافدة والمتأصلة بأسس العولمة (Globalization) مثلا ، والراغبة باقتلاع الذات العربية عن ذاتها وعن طموحاتها ، وعن مواطنتها ، وسلب كل ما يؤدي إلى رصانتها وبقاءها . فضلاً عن كل ما يعمل عملهِ في تفتيت هذه الذات وخلق صورة استبعاد حية لها ، لكن ما يفترض ملاحظته ايضاً ما ساهمت به الذات الثقافية العربية في المجتمع العربي في سلخ ذاتها عن الأصالة ، إذ ساهمت بتهميش ذاتها من خلال انكفاءها وعزلتها وقوقعتها ، فمارست ما يسمى (بجلد الذات) وليس نقدها بشكلٍ عقلي ومنطقي ، الأمر الذي ساهم بقوةٍ في زحزحة هذه الذات، لأنها مع آليات الاستبعاد التي عملت وتحاول أن تعمله في تصديع أساساتها ، تساهم هي ايضاً بعزل ميراثها والتقهقر والرجوع إلى الخلف . لذا فأي الطرق الإستراتيجية الملائمة لفك عرى التداخل هذا بين الاستبعاد والانكفاء ، للخروج بذات ثقافية أصيلة تزيل غبار الماضي ، لمحاولة بناء مجتمعٍ ناهض عملي ، وصناعة منظومة ثقافية عربية رائدة . إن ما يهدف إليه هذا البحث هو الخوض في تأزمات الذات الثقافية العربية ، وكيف عملت مظاهر الاستبعاد على ولوج قضايا الضعف والتدهور إلى داخلها ، وكيف ساهم انكفاءها على ذاتها في رسم الصورة الحالية لها ، وما هي السبل الكفيلة لإنقاذها مما هي عليه الآن ؟

Self-Arab cultural distressed between exclusion and isolation

Afrah. J. Mohammed
College of Basic Education, Al- Mustansiriyah University

Abstract

It cannot be said that rooted self-Arab in Arab culture does not suffer deposits from cracking and tearing, and cannot draw an image that she is living a golden age, as a matter of fact, cultural self-Arab says it was and still suffers from frameworks tried to pick off these self from its roots or origins and content authentic , and emptied of its data rationality, and replacing canned templates brought in from abroad, for the purpose of canceling identity and dwarfing its origins and generations. So nowadays, the cultural Arab-self weeping of the scourge of systematic social exclusion, which represents foreign cultures and the inherent fundamentals of globalization, for example, wishing to uproot

oneself for itself and Arab ambitions, and her compatriot and robbed all lead to gravity and survival. As well as all the work done in the fragmentation of the self and create exclusion vivid picture her, but is also supposed to be seen what is contributed by the Arab cultural self in the Arab community in the same splitting for originality, as it contributed to marginalizing itself through falling down and its isolation and practice what so-called "skin self" and not criticize them in my mind and logical, which contributed strongly in relegating this self, because it is with the mechanisms of exclusion that have worked and are trying to be you doing in cracked foundations, contribute are also isolating inheritance and retreat and back to back. The present study aimed to delve into the problems and crises of cultural self-Arab and how i worked manifestations of exclusion and access issues weakness and deterioration to the inside and how they contributed falling down the same in drawing the current image to them, and what are the ways to save than it is now.

المقدمة

قد تكوَّن في الوطن العربي مجتمع شديد التنوع، انتقالي يتجاذبه الماضي والمستقبل والشرق والغرب في آنٍ واحد ، منكفئ على جذورهِ انكفاءً أصيلاً ، سلفي تقليدي ، غيبي أصيل في منطلقاته ومستقبلي متجدد علماني مستحدث في تطلعاته (والعكس يبدو صحيحاً ايضاً) ، مركزي متصل بالعالم اتصالاً وثيقاً وهامشي بين مجتمعات العالم الحديث ، منفتح متغير بسرعة ومغلق ثابت بشكل مذهل ، غني في ثرواته ومواقعهِ وفقير متخلف مهدد ، صامد رافض ومسالم مستسلم ، متفائل واثق بنفسهِ ومتشائم متدنٍ في معنوياته ، متقدم ومتراجع ، مأساوي وهزلي في أمنياتهِ واستجاباتهِ ..الخ ، إن المجتمع العربي بأختصار هو تآلف كل هذه التناقضات وغيرها في عالم متناقض (1) .

لا يمكن لنا تخيل صورٍ مأساوية وصلَ فيها المجتمع العربي إلى ما هو عليه أكثر من هذهِ الصورة ، التي تمثل كل واحدة منها هماً قد تآلفت في تكوينهِ تناقضات ونزاعات وصراعات قيمية وفكرية وأخلاقية ومؤسسية أوصلت هذا المجتمع إلى عبارة عن كتلة من الصراعات الداخلية والخارجية المحسوسة وغير المحسوسة شملت الهوية وثباتها وتأرجحها وأزمة التخلف والتبعية والثبات في موقع الأصالة أم تركها للتحديث والحداثة المعاصرة ، فتنوع المجتمع العربي وكثرت محنهِ ، الأمر الذي خلق نوعاً من التيهان الكبير والمعقد ، كبيراً بحجم تناقضاته ومعقداً في كيفية تلاطم أمواجهِ بهذه الطريقة ، وبات على هذه الصورة . لعل الخوض في شأن المجتمع العربي لا يعفينا من مهامٍ كثيرة ، يفترض التطرق لها ، لمعرفة صيرورات حال هذا المجتمع وما بلغه من رقي وتطور ، وكذلك تأخر وتأزم وانتكاسات، ويمكن إن تبرز المنظومة الثقافية العربية بشكلٍ واسع، لأنها صاحبة الثقل الكبير في إرساء أسس المجتمع العربي أو تهميشه وتقزيمه .

فكيف تبلورت أسس ثقافة المجتمع العربي ؟

وما هي صورتها الحقيقية الواضحة للعيان اليوم ؟

وهل ساهمت بشكلٍ لا متناهي في تشكيل حضارة العرب في المجتمع العربي ؟

أم إنها أفلت بأفول محفَّزات وجودها وتثبيت أركانها ؟

لقد تموضعت الثقافة العربية بشكلٍ كبير في أرجاء المجتمع العربي وثبتت أساساتها في فترات تخللتها تعثرات وانتكاسات إلى أن وصلت إلى ما يشير إلى ازدهارها وتطورها ، لكن هل عملت منظومة الثقافة العربية على استمرار سريان المجتمع العربي نحو القمة بتكامل عناصر الثقافة ؟ وهل استطاعت أن تقاوم مد الموجات القادمة والزاحفة من اطر التغيير والحراك والعصرية ؟ أم إنها اتخذت لها صوراً أخرى بدَّلت على أساسها من مفردات كثير من معطياتها وما تبلورت عليه ؟

لعل صراعات الثقافة العربية مع الوافد والداخل خلق خليطاً ربما يكون جاهزاً للفرد العربي الذي أصبح بمواجهتهِ ، وهو إما الحفاظ على تراثه وقوقعته بما يتمثل عليه ذلك التراث من قيم وعادات وأسس ونظم ، أو الانجراف مع ما جلبته وفرضته أطوار التغيير القادمة ، فوجد الأمر لا يحتاج قبولاً أو رفضاً ، وإنما الإرغام على تبني ما أعددته العصرية بصورها المختلفة ، وهنا يبرز الدور الرئيس للمنظومة الثقافية العربية في الحفاظ على الذات الثقافية أو تركها تُهمش أو تُستبعد وتُقصى عن ميادينها وأسسها وقيمها ومشاربها التي نشأت عليها .

لذا هل تمكنت رواسب منظومة الثقافة العربية الأصيلة من عمل مصدَّات أمان تقي ذاتها والفرد العربي من الاستبعاد أمام أدوات وعوامل سباق العصرية ؟

هل إن استبعادها عن واقعها وملامحها هي من شاركت به بإرادات تبتغي الانصهار وقبول الغث والسمين وأدى ذلك إلى انكفاءها ؟

أم إن هناك عوامل ذاتية أخرى ساهمت بانكفائها وقوقعتها وعزلتها ؟

مع كل ذلك لا يمكن التنصل من مسؤولية مواجهة الفرد العربي ، ولا يمكن التحاور مع الذات الثقافية ككيان يحمل في جانبيه المادة والروح فقط ، دون التوجه إلى الذات العربية التي أطرت وهيأت لخلق منظومة ثقافية متميزة ، وأيضاً متأزمة ، فالأمر يكون موجهاً إلى ذاتنا نحن في ما فعلته وفي ما تحاول إن تبكي عليه .

إن قراءتنا البحثية هذه تحاول إن تدور في فلك عدة محاور تتعاطى مع أصول الثقافة العربية وصورتها الحالية ، وما أدى إلى سلخ الثقافة العربية عن محتواها وساهم بشكلٍ كبير وجدي في استبعادها عن المكوَّن الثقافي ، الذي يتسم بالأصالة ، فضلاً عن الإشارة إلى معطيات الانكفاء الذاتي الثقافي العربي وما أدى إليه ، وكان لابد من وضع أسس تعامل مع ما نحدده ونستوضحه من مقومات تحاول إن تعيد بناء ذاتٍ ثقافية عربية أصيلة لا يشوبها أية نوع من الاستبعاد ، وإنما حاضنة لسياسة الاحتواء القائمة على التعايش السلمي والتقارب مع الذات والآخر .

أولاً: ما رسخته الثقافة العربية من أسسٍ بمنظوراتها

لا يمكن لأية ثقافة مجتمعية أن تنشأ من فراغ ، ولا يمكن أن تحددها وتنسجها القصص والأقاويل بقدر ما تعدَّ لها أفعال وسلوكيات وأفكار كل مجتمعٍ ما ، ولكل مجتمع ثقافتهِ الخاصة وحتى في داخل المجتمع الواحد يبرز ما يسمى بالثقافات الفرعية الدالة على تنوع التوجهات والأفكار والقيم وتعدد المعارف والآداب.

لقد عُرِّفت الثقافة على إنها مجموعة من الأفكار والعادات والقيم والسلوك ، إضافةً إلى كل المصوغات التي يستخدمها ويمارس بها الأفراد كل أعمالهم في المجتمع (2) .

وأيضاً هي ذلك الكل المعقد الذي يضم كلاً من الأخلاق والفنون والقانون والعادات وكل المواد الملموسة التي يُنظم بها المجتمع (3) .

وكذلك عرفتها اليونسكو على إنها " جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه ، أو فئة اجتماعية بعينها ، وهي تشمل الفنون والآداب وطرق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان والقيم والتقاليد والمعتقدات (4) .

ومن ذلك يبرز تأصيل مفهوم الثقافة وتوحد الاتجاهات في داخلها ، إذ ما تشمله ما يفعله الإنسان روحياً أو معنوياً وكذلك ملموساً أو مادياً لتسيير حياته وفق أسس مجتمعه الذي يعيش فيه . ولعل الثقافة ليست مجموعة مكونات ثابتة جامدة مطلقة منغلقة ساكنة تصلح لكل زمان ومكان ، فهي متطورة ديناميكية منفتحة ونسبية متحولة باستمرار بتأثير عوامل وقوى داخلية وخارجية عديدة . من ذلك فأصالة الثقافة لا تعني مجرد التمسك بالأصول ، بل تعني أيضاً الثبات والديمومة أو الاستمرار والصيرورة معاً ، فتشمل التجديد والابتكار ، وعلى ذلك فأن الثقافة العربية هي ليست وليدة البيئة العربية وإنما وليدة هذه البيئة في تلاقيها مع ثقافات البيئات الأخرى (5) .

وعلى غرار ذلك تندرج الصور التاريخية لكثير من المجتمعات التي بانت ملامح حضاراتها من خلال ثقافات تنوعت وتعددت مرت بها هذه المجتمعات بما تحمله من ارثٍ قيمي وتأريخي وعقائدي وحضاري ، فكل ثقافة هي صنيعة التعقيدات والتنوعات التي يمر بها المجتمع ، وتستمر في الحركة دون الاستاتيكية بتعقد الحياة وتقدَّمها وسيرها نحو العصرية . وهكذا فلكل فرد في الحياة ثقافته الخاصة به والتي تتمثل في رؤيتهِ الفكرية للعالم وسلوكه العملي والاجتماعي والوجداني فيها ، كما إن لكل طبقة مثقفيها كما أشار لذلك (غرامشي) في فكرة المثقف العضوي ، الأمر الذي يجعل من الثقافة هي الرؤية العامة للمجتمعات والسلوكيات السائدة فيها ، إذ تشمل التركيبة العقلية السائدة في المجتمع ، والتي تحكم رؤيته بشكلٍ عام ، مع عدم نفي خصوصيتها والإخلال بجوانب الاشتراك مع الثقافات الأخرى (6) .

ولعل الأنساق الخاصة لسلوكيات الأفراد وتفكيرهم وأعمالهم قد لا يدل على تعدد الثقافات بتعدد الأفراد ، وإنما هذا التعدد ممكن إن يتحد في الاتفاق على الأصول العامة التي تشكل أسس وجذور الثقافة الواحدة التي تجمع ما بين أفراد المجتمع الواحد . فالمجتمع العربي في ضوء ذلك تجمعه الثقافة العربية ، لكن لكل فرد فيه ثقافته من ناحية سلوكه وخياراته وطموحاته وأفكاره ، ولكنهم يجتمعون بثقافة الأم وهي الثقافة العربية في توجهاتها وأصالتها ومبادئها ومعطيات وجودها . ويبرز للثقافة بعداً إنسانياً عاماً وهو يمثل ثمرة وحدة التركيب العضوي والاجتماعي بين البشر جميعاً ، إلى جانب التفاعل المتصل بين الثقافات القومية المختلفة لشعوب الأرض ، الأمر الذي يجعل من هذا التفاعل إما ايجابي أو سلبي ، فالايجابي قد يتمثل بالعلاقات التجارية المتكافئة وتبادل المعارف والقيم ، والسلبي قد يشمل الغزو والاحتلال والإقصاء والتهميش (7) .

إذ إنما تفتح مسارات وقنوات التفاعل والتواصل الإنساني من خلال تلاقح الثقافات وانصهارها على إن تكون الواحدة مكملة للأخرى ، وقد تختفي النزعة الإنسانية عندما تكون الأغراض تهميشية قائمة على استبعاد ثقافي لثقافة أخرى وتقزيمها وتصديع مكوناتها . ولهذا فالثقافة تعبر عن إنسانية الإنسان ، وصراعه لا من اجل مجرد الحياة والبقاء ، وإنما كذلك بل أساساً من اجل التجاوز المتصل للواقع الإنساني القائم وحدوده المعرفية والقيمية والحياتية، فالثقافة في جوهرها ظاهرة تاريخية كذلك لا تدرك دلالتها المتشابكة إلا على أرضية سياقاتها الاجتماعية الخاصة " (8) .

لقد باتت الثقافة غنىً معرفي نظري وعملي ، عقلي وروحي في مجالات الحياة البشرية ، ملموسة ومحسوسة ظاهرة وباطنة تتركز في وعيٍ يتنامى بالمثاقفة وتراكم الخبرة ، ويكون ذلك الوعي قادراً على التوظيف الصحيح للمعرفة والجهد البشريين توظيفاً حيوياً حضارياً ، وقادراً على إنتاج المعرفة مما يساهم في إحداث تغيير ايجابي ينعكس في العلاقات الاجتماعية والدولية ، وفي جميع سلوكيات الفرد وفي المجتمع (9) .

وكذلك تصبح الثقافة عملية تهذيب وتثقيف الطبيعة الفطرية ، أي ما اصطلح على تسميته عند العرب (الأدب) وكذلك ما أُطلق عليه كتَّاب القرن السادس عشر في أوروبا (تدريب العقل) وفولتير (تكوين الروح) (10) .

ويمكن إن تكون جُل حياة الإنسان هويتها الثقافية برموزها وإبداعاتها وسلوكياتها ، والتي ساهم الفرد في تكوينها وساهمت هي الأخرى في وضع مسار صحيح قد لا يمكن إن يحيد عنهن لأسباب تتعلق بالحفاظ على التراث والأنساق الثقافية الحاوية لقيم ذلك الفرد وأصول حياتهِ ومقدَّساتهِ ومحرَّماتهِ . وعندما يستدرجنا التأريخ للتوغل في جذوره ، نرى إن كثيراً من المجتمعات بدأت وتنامت ثم أُفُلت وانهارت ولم يتبقى منها سوى صورها الثقافية التي تميزها عن مثيلاتها من المجتمعات الأخرى ، عبر قيمها وأفكارها وسلوكيات أفرادها وما آلت إليه حضارتهم في تقدمها أو بؤسها وانحلالها ، إذ يساهم الفرد في اغناء الثقافة وتساهم هي في وضع مسالك ثقافية له . إن الحق الإنساني بات يخوَّل لكل امة بأفرادها إن تتميز وتختار لها طريقاً وسلوكيات خاصة بها عن غيرها من الأمم ، وذلك بما تمتلكه من مقومات حضارية تعمل على تشكيل هويتها الثقافية ، وصياغة خصوصيتها الوطنية ، مانحة إياها حق الاختلاف والتمايز ، والتعاون مع الشعوب الأخرى كشريك له شخصيته المتميزة لا كتابع أو مستهلك ومروج لما ينتجه الآخر(11).

وعلى أساس ذلك تبرز المجتمعات وتخط لها كيانها الخاص ، فلا تأتي تلك السيادة والاستقلالية إلا من خلال شخصية قد صقلتها القيم والمنظومة الثقافية الخاصة بها ، فعندما تعمل تلك المجتمعات تعمل بثقافتها التي تدفعها للفكر وللممارسة والإبداع ، وعندما تنهار تبدأ بانهيار منظومتها الثقافية التي قد تتلاشى مؤديةً إلى صدعِ أساسات المجتمع الذي نشأت فيه ، وبالتالي أفرادهِ ، والخصوصية الثقافية متاحة ومباحة لكل مجتمع فهي التي تمكنه من تجسير العلاقات مع الثقافات الأخرى وصولاً لما يسمى بالتكامل الثقافي والحضاري ، فضلاً عن أهميته في إبراز ملامح وحدود المجتمع من خلال هويته الثقافية . لقد سادت في المجتمعات الراهنة وبخصوصاً في نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين ثقافة ثنائية ملتبسة غير متوازنة ، إذ إنها تمتاز بالهشاشة والسطحية في بنيتها المعنوية والمادية على السواء ، ففي ثقافتنا العربية لا القديم التراثي عميق الجذور في تأصيله المعرفي والقيمي والوجداني ، إلا في بعض الاجتهادات المستنيرة التجديدية الفكرية والعلمية لبعض القوى الثقافية المعارضة ، ولا الفاعل الخارجي له أسسهُ وركائزه النابعة من الإبداع المجتمعي الذاتي ، حيث بات هذا الفاعل يمارس تأثيره السلبي في عرقلة التنمية الذاتية (12) .

فثقافة ما يسمى بعصر النهضة اتسمت ببذرة الثنائية والالتباس منذ بدايتها ، فهذه النهضة كانت نهضة فوقية برَّانية مفروضة ، دون إن يعني ذلك إنكار ما حققته من منجزات حداثية وتحديثية ، والتي حاول معها الفكر العربي آنذاك إن يتلاءم ويواءم معها بشكلٍ ايجابي ، من خلال التوفيق بينها وبين جذور تراثنا الديني (13) .

ويمكن إن يكون هناك مظهر آخر من مظاهر الثنائية ولكنها الثنائية الضدية وليس التوفيقية، إنها الثنائية الاستعلائية بين الذكورة من ناحية والأنوثة من ناحية أخرى ، بين تسلُّط وتفرُّد وهيمنة الرجل ودونية المرأة ، وهي

أيضاً ثنائية التناقض بين الفكر والواقع بين التنظير والتطبيق والتناقض بين سلطة الثقافة وثقافة السلطة ذات الرؤية الإستراتيجية البعيدة التي تقاوم كل ما هو متخلف مستغل أو مستعمر ، والثنائية بين ثقافة السلطة وسلطة الثقافة ليست توفيقية بل تعبر عن صراع خصب محرَّك للمجتمع وصانعاً للتأريخ (14) .

إن دخول أنماط التغيير إلى حيِّز وجود الثقافة المجتمعية ، لا يبقي تلك الثقافة بمنأى عن الخطر والتغيير ، وإنما تستعد إما للاندماج والذوبان أو الانسلاخ والتلبس بلباس ماهو وافد أو المقاومة ومحاولة الثبات على الأصول ، أو التوفيق بين الطرفين بمحاولة اخذ ما يناسب العصرية دون تغيير ونسف التراث وتقويض أسسه ومقوماته ، وبالتالي تقويض وتصديع الخصوصية الثقافية ذاتها . وتجلب كل ثقافة سواء كانت محكومة بالزمن أو المكان معها كل ما هو مختلف عن أصول الثقافة الوافدة لها ، ولا يمكن إن يكون أي مفصل من مفاصل حياة الفرد في المجتمع بمنأى عن التغيير الذي تحتمه تلك الثقافات الوافدة .

ولعل الأزمة الثقافية التي نعيشها اليوم تتجسد في أزماتٍ أخلاقية وسياسية وقومية وحضارية وقيمية ، والتي تكوَّن بمجملها ما اصطُلح عليه بالأزمة الثقافية (15) ، التي باتت معضلة تنذر بانقراض أو تقطَّع أوصال الثقافة العربية اليوم ، ولم نشير إلى أزمة ثقافية عربية من خلال التنبؤ بها أو نسجٌ في الخيال ، وإنما واقع حال التقزَّمات العربية وعلى مستوى السلوك والأفكار والتوجهات والأصالة والهوية والتشتت والانوية خير دليل على ذلك .

فنحن اليوم محكومون بثقافة قد حكمنا على أنفسنا بها ، ثقافة تعاني انزلاقات كبيرة في مهاوي التأخر والتخلف والتبعية والانطواء والعزلة والتمركز على الذات ، إننا نعاني أزمة تقطَّع أوصال الهوية العربية ، من خلال عدم التمسك بالأصول الصحيحة لتراثنا ونبذ كل ماهو بحاجة للتغيير ، فأصبحنا نعيش في ما يسمى بثقافة البقاء دون خلق ثقافة التغيير في أوضاعنا وأحوالنا. لذا فمن المؤكد إن المجتمع العربي اليوم يعاني التغرَّب والاغتراب ، وهو في سياق ذلك يسعى لتجاوز اغترابه ، إذ توجد الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة والثقافة التي تسعى وتتطلع نحو الماضي والأخرى التي تندفع نحو المستقبل (16) .

فمن الممكن إن تكون ثقافتنا العربية اليوم بصورتها الحالية قد انقسمت إلى عدة ثقافات حائرة، منها ما يحاول إن يبقي على الثوابت مع رغبتهِ بالعيش في الحياة العصرية ، ومنها ما يحاول إن ينفض غبار الزمن ورفض أصوله التي نشأ عليها ، وأخرى لا تعرف ربما أي الطرق تختار وتسلك ، وكل ذلك مدعاة لتغريب واغتراب يسمح لاستئصال كل جذور الأصالة ويضع محلها توليفات مؤقتة غير قادرة على الثبات والتمركز في مكان أو أساسٍ واحد .

تصنَّف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو) حال الثقافة العربية في نهايات القرن العشرين ، فتحدد ثلاث سلبيات أساسية : قصور الاستشراف المستقبلي ، وثقل القيود على الحريات ، وسيادة الإعلام الترفيهي السطحي ، ولعل هذه السلبيات تختصر جانباً واسعاً من أزمة الثقافة العربية وتحث المعنيين لمعالجتها بتبصر وموضوعية ، ويمكن إضافة سلبيات أخرى كظواهر القمع أو التسلط ، والانبهار بالغرب أو التبعية وتزايد الفردية والشطط القيمي عند المثقفين العرب وقصور الأنظمة التربوية التعليمية ومحدودية الفكر النقدي المستند إلى العقلانية (17) .

وكيف لها إن تستشرف المستقبل وهي باتت مستهلكة غير منتجة تدور دوراناً مفرغاً ، لا تقوى على النهوض أمام هجمات الوافد الخارجي ، الذي أحط بشكل كبير من أساسات الثقافة العربية، لعدم القدرة على التعامل مع ذلك الوافد ، الأمر الذي ساهم في تغيير البناء المؤسسي الى بناء شكَّلته التغييرات الحديثة ، فخلق منظومة قيمية خاوية

على عروشها تلقَّن وترفد الفرد بمفاهيم بعيدة كل البعد عن أصوله القيمية ونهجه العقائدي والثقافي . إن الفرد العربي اليوم فرداً مستعلياً في فكره وثقافته ، لا يقوى على مجابهة واقع إن منظومة ثقافته العربية تواجه تأزما، وهذا التأزم من الممكن إن استمر لربما يؤدي إلى اضمحلال أو ضعف حضارة كبيرة قد قدمت ما قدمت في السابق من ازدهارات. لعل الصورة الحالية اليوم للمجتمع العربي تفصح عن مجتمع متقطع الأوصال ، لا يوجد رابط بينه وبين هويته وجذوره بالشكل الذي يستحق معه إن يسمى مجتمعاً ذو تراث عميق وجذور قوية ، الأمر الذي يحرم ذلك المجتمع من القدرة على التمييز الدقيق للواقع ومتطلباته ، فيظل يجتر كل همومه ويصارع ذاته بها . ويمكن إن تبرز اجلي صور التأزم الثقافي العربي في وقوع المنظومة الثقافية العربية بين طريقين ، طريق الأصالة أو طريق المعاصرة ، فهناك الثقافة العربية الكلاسيكية التي تمجد الماضي وتقدسه ، وبالمقابل هناك الثقافة العربية الحديثة التي وبفعل ازدواجيتها يعيش فيها الفرد بضياع شبه تام لابتعاد زمنها الثقافي كل البعد عن ذاتية الفكر العربي وخصوصياته (18) .

ومن ذلك برزت مقولات التقليد والحداثة والأصالة والمعاصرة والثبات والتغيير ، جميعها تشير إلى واقع الثقافة العربية الراهن وما ينبغي إن تسير وفقاً له .

فهل البقاء على الأصول دون تغييرها كفيلاً بالحفاظ على التراث وعدم تمزق أو تشتت الهوية ؟ أم إن ذلك مدعاة للانغلاق والجمود والتقوقع ؟

وهل الأخذ بالمعاصرة وترك القديم ينسف جذور الماضي والتراث ويسفَّه القيم والعادات ويحطم أسس الحياة، أم انه يؤدي إلى الرفعة والانتصار على القديم والبالي ؟

ووفقاً لذلك انقسم المشهد الثقافي العربي بين تلك الصورتين وهذين الطريقين ، وما ينبغي على الفرد العربي في إن يتبعه لتحصين ذاته من الضياع أو التمسك بجذورٍ قد لا تعود عليه بالنفع ولا تطور من إمكانياته ، فالصراعات متواجدة وربما هذه من أشدها تضاف إلى الصراعات الأخرى التي حطمت أسس الثقافة العربية . ولما كانت الثقافة تحمل مكانة مهمة في تأريخ المجتمعات العربية ، إذ إنها ازدهرت بازدهارها وخبت شعلتها في حقب تخلفها وتفككها السياسي والاقتصادي ، وكانت الحصن الذي واجهت به هذه المجتمعات وما تعرضت له من انتكاسات أو غزوات (19) .

إلا إنها قد تفعل العكس من ذلك عندما تتشرب بقيم وافدة وتزرع في داخلها بذور التغريب والتفرقة والتشتت ، إذ قد تحط من مجتمعاتها وتؤدي بهم إلى قيعان العزلة والانحسار ، لأنها لم تعد باقية على ثوابتها الأصيلة التي مكَّنت مجتمعاتها سابقاً من النهوض والسمو بها إلى درجات عليا في الحضارة والتقدم والتطور . وبمعادلة بسيطة قد تزدهر الثقافة صانعة معها ازدهاراً مجتمعياً كبيراً ، وقد تفشل جالبة معها تدهوراً وانحطاطاً مجتمعياً ، وبالمقابل يؤدي إلى فناء المقومات الثقافية لذلك المجتمع . يقول عبد الله عبد الدائم " إن الثقافة العربية من اعرق الثقافات في العالم ، وهذه العراقة تمنحها القوة والقدرة على البقاء ، ولكنها كثيراً ما تكون (حين لا يُفهم دورها فهماً حقيقياً) عبئاً ثقيلاً معرقلاً للتجديد والتجويد والتحديث ، ذلك التجديد الذي لا تكون من دونه أي ثقافة حية ، بل تندثر وتزول " (20) .

وبمعنى آخر ما لا يتم التعامل مع الثقافة العربية وفق معطياتها التي قامت على أساسها ونشأت من خلالها ، فيتم التعامل معها وفق ادوار هي بعيدة عنها ويراد لها إن تؤدي مهام غير ملزمة بها وليس من وظائفها ، من خلال

محاولة تطويعها بقوالب جاهزة تؤدي إلى بعثرة أصولها وربما تذويبها وانهيارها ، ولا ريب في ذلك إن كل هذا من شأنه إن يؤدي إلى إن تصبح أي ثقافة وليس فقط الثقافة العربية فحسب إن تعرضت إلى مثل هذا الإفراغ من المحتوى إلى عامل مساعد للتقهقر والتأزم والانهيار .

فالأمم تقاس تطوراتها وتقدمها بثقافاتها وما تنتجه تلك الثقافات الضامن لبقائها واستمرارها في الحياة ، ولعل الصورة الأخيرة التي يمكن إن تضعنا على حال الثقافة العربية ممكن إن تشير إلى تأزم ثقافي غريب ومعقد في الوقت ذاته ، ساهمت عدة عوامل على تشكيله ، مما أدى إلى انحسارات كبيرة في مستويات النهوض والتطور ومجاراة مديات التغيير والتأقلم والتكيف مع العصرية الجديدة والمستمرة ، وخلق أنماط معيشية وحياتية تختلف اختلافاً كبيراً عن السابق ، مما أدى إلى خلق توترات حياتية كثيرة ناجمة عن تغير القيم وتبدلها واستيراد أنماط وقيم أخرى ، مع ظهور صراعات ثقافية انطوت تحت التمسك بالتراث أو نبذه والسير مع الحداثة وأصولها ، وانحطاط السلم الثقافي وتراجعه إلى ادني مستوياته .

وربما كل ذلك كفيل بجعل المجتمع العربي ذو ثقافة مستبعدة أو مهيئة للاستبعاد والإقصاء والتهميش ، ما دامت هناك محفزات لذلك ، فما هي ابرز ملامح الاستبعاد التي ساهمت في سلخ الذات الثقافية العربية عن جذورها وقيمها ومبادئها ؟

ثانياً : صور سلخ الذات الثقافية العربية عن محتواها واستبعادها

إن الوضع الثقافي الدولي الراهن يكرِّس الآن إستراتيجية ثقافية جديدة ، لقد حل الاختراق محل الاستتباع فتحولت التبعية الثقافية إلى عملية تكريس وترسيخ لثقافة الاختراق " (21) .

هل فعلاً هناك ما ساعد ودفع إلى استبعاد الذات الثقافية العربية عن أصولها ومحتواها ؟

وبماذا تمثل هذا الاستبعاد ؟

وكيف تبلورت الصورة الحقيقية له ؟

لقد تعرضت ثقافتنا العربية إلى شتى أنواع الصدمات الثقافية والفكرية ، التي حاولت تصديع أسسها وأبعادها عن محتواها الجوهري ، وملئتها بكل ماهو مزيَّف وقابل للاستعباد والتبعية وبالتالي الاستبعاد .

وباتت أصولنا الثقافية عرضة لكثير من محاولات التسطيح والتغريب ، وفعلاً وجدت لها هذه المواد والإيديولوجيات الوافدة موطأ قدم في صلب ثقافتنا العربية .

لقد تداول اصطلاح الاستبعاد الاجتماعي في الأوساط السياسية والثقافية وفي علم الاجتماع بكثرة في العقد الأخير من القرن العشرين ، واتسع استعمال هذا الاصطلاح بشكل كبير وبصفة خاصة مع نشر تقارير الأمم المتحدة والتنمية البشرية (22) ، وقد يشمل استبعاد فرد أم مجتمع عن حقوقه وامتيازاته أو عن هويته وجذوره الخاصة به

من المؤكد إن كل ثقافة تتعرض لمحاولات تصدع وتقزُّم وبضمنها الثقافة العربية ، إذ تعرضت للعديد من محاولات نسف الجذور وترسيخ أيديولوجيات بديلاً عنها . إن الاحتكاك الثقافي بين ثقافتين يؤدي إلى ما يسمى بالتبادل الثقافي ، والمقصود به إن كل ثقافة تنقل سمات ثقافية أخرى إلى الكيان الآخر أو الثقافة الأخرى ، وتقوم في الوقت ذاته بعملية استيراد ثقافي، وفي كل الحالات الثقافية الضعيفة قد تتعرض إلى انهيار ثقافي كلي أو جزئي (23).

وقد تعرضت الثقافة العربية شأنها شأن ثقافات أخرى إلى محاولات احتكاك من قبلها أو من قبل أطراف أو ثقافات أخرى ، وينطوي هذا الاحتكاك أو التبادل على محاولات اقتباس ونقل المعرفة من ثقافة إلى أخرى ، بغرض زيادة الرصيد أو الإنتاج الثقافي والمعرفي ، وتبنِّي أصول الثقافة بأطوار جديدة ومحو الكيانات القديمة التي باتت غير نافعة .

لكن ما يثير التساؤل في الأذهان ، هل إن كل الثقافات التي تعاطت مع ثقافات أخرى بهدف التبادل الثقافي ، كان غرضها الأول والأساس اكتساب المعرفة من زاوية إعطاء واكتساب؟ أم إن هناك بعض الثقافات دخلت إلى دائرة التبادل لأغراض أخرى تنطوي على محاولات إنهاك الثقافة المقابلة وتسطيحها وتغريبها وتفتيت الأسس التي تقوم عليها . ولا يمكن إن ننكر إن الثقافة العربية قد انتفعت كثيراً من احتكاك الثقافات الأخرى بها ، ولكن قد تأثرت بالمقابل من قبل إيديولوجيات وصراعات أخرى ، حاولت دمج الثقافة العربية مع ثقافتها بداعي التوحد والتطور ، لكن غرضها الحقيقي هو تسطيحها ومحاولة تفتيت أسسها . لعل عوامل انهيار أي ثقافة من الممكن أن تحدث نتيجة غزو أجنبي ، ويحاول الغازي خلالها حتى يضمن إخضاع الجماعة الغريبة وهضمها ودمجها في نظامه إن يحطم قنوات التواصل فيه، بما تنطوي عليه من مدارس ودور علمية أو كتب ومنشورات ويستبدلها بما يريده هو ويثبته (24) .

وفعلاً شهدت الثقافة العربية غزوات كثيرة حاولت من خلالها الجماعات الغازية تحطيم أسس الثقافة العربية ، لان ذلك يعني تدمير مجتمع بأجمعه ألا وهو المجتمع العربي ، فعملت بعد صورة الغزو إلى تسفيه وتصديع أصول الثقافة العربية من خلال تفتيت وتقطيع روابط هويتها وإلغاء تراثها وإدماج أفرادها في أصول الثقافة الجديدة وإرغام الفرد العربي على ترك أصول حياته وثقافته والتمسك بالحديث والعصري بحجة التناغم والسير وفق معطيات العصرية والتقدم . ومن كل ذلك ممكن إن ينشأ ما يسمى بالصراع الثقافي ، إذ قد تحاول الثقافة المغلوبة على أمرها بالدفاع عن جذورها ، فيحدث صراع بينها وبين الثقافة الغريبة التي تريد إنهاك قوى الثقافة الأصلية . ولعل الصراع الثقافي هو تعبير جلي عن عقلية الإقصاء والنفي للآخر الثقافي ، سواء داخل الكل الوطني بتنوعاته الطائفية والعرقية والمناطقية ، او في إطار الصراع بين الأمم المختلفة (25) .

وطبيعة الصراع الثقافي الذي قد يشمل حتى التناحر داخل الوطن الواحد ، قد لا يعني فقط محاولة كلا الطرفين القصاص من الآخر بتهميشه ، فقد يعني تعرض طرف ثقافي لطرف آخر ، محاولة من الطرف الأول تهميش الطرف الثاني وتقويضه وسلخه عن أصوله الثقافية ، الأمر الذي قد يدفع بالطرف الأول إلى الدفاع عن ذاته فيدخل ما يسمى بالصراع شكلاً ولكنه في الأساس دفاعاً عن المبادئ ومحاولة تثبيت أركان الثقافة الأم . ومع إن الثقافة تعتبر حالة سيَّالة في عمرها الوجودي ، إلا إنها تشكل خصوصيتها الذاتية التاريخية فأنها تحرص على نواتها الذاتية بكل قوة فترفض وتقاوم أي انتزاع لعناصرها الذاتية الأصلية، خاصة في أجواء الفرض، وعليه لا تزيد محاولات الفرض لنسق ثقافي معين على أي واقع ثقافي عريق ألا إصراراً وتحدياً على المقاومة (26) .

وذلك ما هو مؤمل ومتوقع ويفترض إن يكون حال الثقافة التي تتعرض لهجوم المد والغزو الثقافي الآخر ، لكن ذلك لا يعني إن كل ثقافة عريقة تعرضت لغزو ثقافي يحاول إفراغها من محتواها ، قامت وعدَّت العدة وهيأت ذاتها لمحاولة الدفاع عن أصولها ، فالثقافة العربية ما زالت تأن وتعاني من شدة التقويض، والمساعي الكفيلة بإخراجها من أزماتها ليست بالمتوقعة والقادرة على حل المعضلة وإنقاذها . إن الغزو الثقافي هو تغليب ثقافة وإيديولوجية المستعمِر على ثقافة

المستعمَر ، وخلق هوة وتقطعات بين ماضي الشعب وحاضره ومستقبله وتراثه الثقافي ، الأمر الذي يراد منه إن تنسى الشعوب المستعمر أصول حياتها وقيمها الموروثة وتقاليدها ، مما يؤدي إلى خسارتهم وتمزق هوياتهم (27) .

وحقيقة الأمر إن الشعوب المستعمِرة اليوم لا تأتي بصورة الغازي الثقافي ، وإنما بصورة المنقذ الذي يريد الخلاص للشعوب الضعيفة والشعوب الساعية للنهضة ومحاولة التقدم والتطور . وبذلك برزت نتيجة ذلك أزمات حادة ومتلاحقة بدأت تأن منها الثقافة العربية بشكل متواصل ، وذلك بعد إن أجهضت النهضة العربية الأولى تحت وطأة التناقضات الداخلية والضغوط الأجنبية منذ أكثر من قرنين من الزمان (28) .

وفعلاً قد أنهكت هذه الأزمات ثقافتنا العربية وجعلتها غير قادرة على المواصلة والدفاع عن خصوصياتها دون بعثرة وتشتت فروعها وتصدع أسسها وهويتها . يقول محمود أمين العالم " إن ثقافتنا العربية هي امتداد لحضارتنا العربية الإسلامية ، ترث من ناحية مجد صعودها التاريخي القديم ، كما ترث اليوم كذلك انطفاءها وتفككها – تأريخيا- إلى كيانات قطرية مختلفة ومتخالفة وتدهور فاعليتها الإنتاجية والإبداعية ، فضلاً عن تبعيتها في وقتنا الراهن لحضارة تتمثل في نمط الإنتاج المعمم أو المعولم ، الذي تهيمن عليه بعض الدول الرأسمالية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية (29) .

من ذلك تدور في الأذهان قضايا محورية وجوهرية تتعلق بحالة الثقافة العربية وكيف نهضت نهوضاً قوياً ، ثم تعرضت لانتكاسات عدة وخصوصاً دخولها في دوامة التبعية ، التي فرضت عليها الانقياد شاءت أم أبت لإيديولوجيات الغرب الرامية إلى إعادة تشكيل أو صيانة الثقافة العربية من جديد ، وفق أسس تريدها هي لتقوية حضورها وتسيدها في العالم . إن شعوب العالم اليوم باتت تعيش في ما يسمى بعصر العولمة وسط خوف كبير على الذات والمصير والأهداف والتراث والتأريخ، فالعولمة تساهم في تدفق الأفكار والسلع والخدمات بين مختلف شعوب العالم ، فتتجاوز بذلك كثيراً من الحواجز والقيود وترمي إلى توحيد العالم في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الأمر الذي يحمل معه مخاطر جدية لإلغاء التنوع الثقافي ، وتهميش الشعوب ، مما أدى إلى فهم كثير من الشعوب لمقاصدها ومحاولاتها (30) .

فالعولمة أصبحت عملياً خطر يداهم ويهدد كثير من الشعوب والثقافات والمجتمعات ، فضلاً عن مصالح وشرائح اجتماعية واسعة في العالم ، الأمر الذي زاد تلك الطبقات والشرائح المسحوقة بؤساً وفقراً وتخلفاً (31) .

لقد شكلت العولمة بزحفها على مجتمعات العالم صدمة كبيرة لتلك الشعوب بثقافاتها وأسسها ، فلم تكن العولمة بأوجهها المتعددة وآلياتها واذرعها راغبة في فرض مساعيها رغماً عن كل مجتمع ، وإنما هيأت لذلك الاجتياح والغزو بكل أبعاده ، صورة جميلة ومنمقة تحاول إن تحاكي واقع هذه المجتمعات بحجة الرقيب والمعين والنافع، فدخلت وجاءت العولمة بأطرها الكبيرة والمتنوعة إلى شعوب العالم من الزاوية الاقتصادية ، محاولة ابتلاع العالم اقتصادياً وفق تدويل الثروات في سوق عالمية واحدة تعود لمنتجي وصنَّاع العولمة ، وكان ما مهياً لذلك كتبريرات تبرر الاجتياح ذلك ، هو محاولة سلطات العولمة إنقاذ العالم من آفاته المتعددة ، والتي تشمل الفقر والبؤس والحرمان وعدم التكافؤ من خلال مساعدة الشعوب الفقيرة بإقراضها ومنحها منتوجات تسير باقتصادها إلى الأفضل، لكن الأمر اتضح بأن ذلك محاولات لإلغاء هوية هذه الشعوب الاقتصادية وجعلها شعوباً تابعة باقتصادها لأذرع العولمة، وذلك مبتغى حاولت ونجحت في الوصول إليه ، إذ من خلاله تصبح سيدة كل شيء وهي صاحبة الكلام الفاصل في التحكم بثروات العالم .

ولم ينته الأمر عند ذلك ففتحت إيديولوجية العولمة العالم على مصراعيه ليستقبل كل شركاتها المتعددة الجنسيات ، لتصبح مسيطرة بشكل كامل على كل اطر الحياة في العالم بدوافعٍ مبطنة غرضها تثبيت أسس السيطرة والاستغلال ومحاولة احتكار ثروات الشعوب ، كما إن الأمر لم ينحصر عند الجانب الاقتصادي فسرعان ما اخذ الجانب الاجتماعي والثقافي والسياسي نصيب من سيطرة واجتياح العولمة . فالعولمة بمقدار ما تعني الهيمنة الثقافية الأمريكية على ثقافات وشعوب العالم ، فهي تعني اجتثاث كل ثقافات تلك الشعوب وتغييبها وإحلال الثقافة الأمريكية محلها (32) ، وذلك ما حدث فعلاً عند دخول العولمة دون استئذان لمنظومتنا الثقافية العربية ، إذ إنها وجدت عند دخولها بعض المهيآت القابلة للتأقلم معها في كثير من نواحي ثقافتنا العربية ، إذ وجدت من يحاول الخلاص من تراثه وثقافته وهويته ، ووجدت ايضاً من يحاول الابتعاد عن ذاته وقدسياته ، فعدَّت العدة الكبيرة للدخول عبر هؤلاء والنفاذ إلى أساسات الثقافة العربية . وهكذا جاءت العولمة وفي أجندتها مفردات تريد إن تطبقها على ارض الواقع ، وخاصة الواقع العربي ، وهي سلخ واستبعاد الفرد العربي عن جذوره وهويته وتقطيع أوصال تأريخه وتراثه ، وذلك برمتهِ لم يكن كلاماً تناقلته الأدبيات والمفكرين والساسة ليؤثر على الثقافة العربية ، وإنما وجد ذلك تطبيقاً واسعاً له في ارض الثقافة العربية . فاليوم تلعب الأداة المعلوماتية كأحد أذرع العولمة دوراً جوهرياً في تنميط حياة الفرد العربي وفق النموذج الغربي المعولم من خلال تعرضه عبر آليات تسويقها من فضائيات وشبكة الانترنيت وأجيال الحواسيب والمحمول وغيرها ، إذ أرادت إن تزرع في قلب الثقافة العربية ثقافة نسف الجذور بتبرير الثقافة الداعية إلى التغيير، فلا عدو يجابهها بعد إن تنَّقض بصورةٍ كلية على أسس الثقافة العربية التي تعمل على بناء مجتمع ناهض مزدهر . لذلك تأرجحت القيم الثقافية لدى الفرد العربي وبات يقارن بشكل كبير بين ماضيه المملوء بالتراث والتأريخ والقيم والعادات والتقاليد وبين حاضره ، حاضر العولمة أو ما يظهر له عصر السرعة والتغيير ، وبات يضيق ذرعاً بهيأته وعيشه وسلوكيات عالمه وتفاهة قدره الذي وضعه في هذا المجتمع ، وثارت لديه الشكوك حول معتقداته وأصولها وأساساتها وهل هي صحيحة وتصلح لواقعه اليوم ، أم أنها خاطئة ولا حاجة لها ، بل إن بقاءها يشكل معضلة له . كل ذلك خلقته العولمة بأطرها الثقافية المختلفة التي هبَّت على الفرد العربي من كل حدبٍ وصوب ، وهي بذلك مثلت غزواً ثقافياً يحاول إقصاء وطمس معالم الثقافة التي تعرضت هي لها ، فضلاً عما نقلته العولمة لنا من طرز حياة غربية وجديدة كأن تكون في المودة وأشكال الملابس وتبدَّل الأذواق الفكرية نحو العبادات والدين والعفة والحجاب واللاباحية . إذ إنها أرادت إن تخلق فرداً مفرغاً من الداخل لا يحتوي مضمونه على شيء غير ما أعدته له العولمة من أجندات تحاول زرعها فيه لخدمة أغراضها هي فقط ، جاعلة منه روبوتاً تحرَّكه أينما تريد وتشاء ، وبالتالي فأن محصلة ذلك جعل الثقافة العربية ثقافة مستبعدة من قبل غزوات ثقافية مستمرة ، مثَّلت العولمة بآلياتها واذرعها القاسم المشترك فيها . لقد بات الإنتاج الثقافي العربي الراهن في غالبهِ أسير الثقافة الاستهلاكية لعصر العولمة ، التي تعمل على تهميش الثقافات المحلية ، إذ إن حضور ثقافة العولمة الطاغي في جميع وسائل الإعلام العربية ، يشكل تحدياً كبيراً لقدرة الثقافات الوطنية والقومية على الاستمرار والمواجهة لمختلف التحديات (33) .

إننا اليوم أسرى لما يسمى بالتدفق الهائل للمادة الإعلامية ، التي تعمل على تنميط الحياة وفق أنماط يريد من خلالها صناعها استباحة الفكر والذات وتدمير حياة الآخرين والسيطرة على العالم ، حيث إن السيطرة على العالم بما فيه تبدأ من استلاب واستمالة العقول وقولبتها نحو أنماط تكاد لا تتلاءم مع أسس وحياة كثير من الشعوب، إذ إن ثقافة العولمة تريد أن

تُدخل الثقافة العربية في متاهات البحث عن الذات الثقافية ، من خلال عملها الدؤوب والساعي إلى تذويب هذه الذات ، ومن خلال سلب خصوصيتها أو تفويضها بعمل آخر غير المحافظة على أصولها وتطوير مسالك ازدهارها وهو تلقف كل ما يؤدلج له الغرب لتلقينه للنشأ العربي ، لمحاولة إفراغه من محتواه وبث روح التميَّع والسذاجة والوهن والتدهور لديه . ولهذا يضيق ويكاد يخفت صوت العقلانية والعلمانية والعلمنة والرؤى الموضوعية والنقدية والإبداعية وقيم الحداثة والاستنارة ، التي هي أسلحتنا لتنمية خصوصيتنا الثقافية وهويتنا القومية وتفتحنا الحضاري والفكري والإنتاجي على السواء في مواجهة العولمة الرأسمالية وهيمنتها الأمريكية (34) .

فالعولمة رغم إنها لا تأتي بمنظر العدو المواجه مباشرةً لخصمه ، إلا إنها لها أسلحتها الماضية والقوية التي غيَّبت واستبعدت روح المجابهة والتحدي والقدرة على التنافس وخوض غمار الدفاع عن الهوية والتراث والحقوق المجتمعية .

لقد باتت العولمة استلاب حقيقي أزاح كثير من الثقافات عن تراثها العريق واستبعدتها عن المنافسة الجادة والسعي الحثيث نحو المواصلة وتحدي المواقف الراهنة بصعوباتها ، للوصول إلى حالة متقدمة من الرقي والازدهار . إن الهجمة الثقافية للعولمة هجمة غير واضحة للعيان ، لأنها تستهدف الروح لا المادة ، إذ إن تدفق المعلومات وانتشار المواد المؤدلجة عبر اذرع وآليات العولمة ، لم يكن المقصود منه إلا إشاعة وبث مفاهيم جديدة تتوغل إلى المنظومة الثقافية القيمة ، لمحاولة زعزعتها عن أصولها والترويج لمفاهيم عولمة الثقافة وأيديولوجيتها (35) ، فضلاً عن استخدامها للروح فهي من الممكن إن تستهدف المادة أيضاً ، فاليوم نحن بمواجهة موجة هائلة من التطورات المادية الملموسة اقتصادياً ، والتي تسوَّق على شكل مواد مصنَّعة ، إلا إنها تحمل في مضمونها رسالة إيديولوجية وثقافة العولمة.

فمواجهة مجتمع ما بأسلحة متقدمة ومتطورة لا مثيل لها ، لا يشير فقط إلى نزعة السيطرة ، وإنما إلى لغة العولمة التي تفرض مقالاً مفاده إن الجميع تحت السيطرة ، ففي المجال العسكري لدينا ما يفوق مجتمعات العالم سلاحاً نوعياً ، وفي الاقتصاد لدينا الأسواق والشركات العالمية ، وفي الثقافة والمجتمع ستستبعد وتسلخ كل ثقافة عن محتواها ، لتبقى مجتمعاتنا فارغة بقشور دون مضمون .

فعقلية دعاة العولمة أُريد لها إن تستنزف عقول المجتمعات الأخرى ، فبدأت بدق اسفين التأخر والتبعية والفقر والرغبة في المساعدة بمبررات هي اختلقتها ، في جسد الثقافة العربية لشل حركتها وإفقادها لأية قدرة على المطاولة ومحاولة الوثوب من جديد.

فهل إن استبعاد الذات الثقافية العربية عن أصولها وتشويه ملامحها قد اقتصر على الهجمات الغازية الثقافية والغزوات العسكرية واطر العولمة وآلياتها ، أم إن الأمر قد تعلق أيضاً بعوامل ساهمت وساعدت على استبعاد الذات الثقافية العربية ؟

ثالثاً : انكفاء الذات الثقافية العربية على ذاتها وانغلاقها إلى الداخل

هل من الممكن القول إن ثقافتنا العربية قد استُبعدت عن موقعها الحقيقي وإطارها الملائم للحياة المزدهرة بسبب هجمات الغزوات الخارجية والمتمثلة بالاستعمار والغزو الثقافي والعولمة وآلياتها ، أم إن الأمر كفيل بعوامل أخرى ساعدت على الاستبعاد أو إنها أدت إليه ؟

قد يتعرض مجتمع ما إلى استبعاد ثقافته بسبب ما ذكر سابقاً ، ولكن قد تشارك أسباب أخرى ذاتية داخلية تُسهَّل من عملية الاستبعاد والإقصاء ذلك ، أو أدت تلك لأسباب قد تمهِّل لمراحل استبعاد تمر بها ثقافات المجتمعات .

لعل من المهم ذكره إن هناك عوامل انكفاء عديدة تعرضت لها ثقافتنا العربية قد زادت ووسعت من دائرة الاستبعاد ، أو إنها أوجدت مكاناً رحباً أدى إلى استفحال اطر الاستبعاد .

فهل للانكفاء على الذات والتقوقع والضعف دوراً كبيراً في إقصاء وتهميش الثقافة العربية ؟

وهل إن الأمر في حقيقته تعرَّض الثقافة العربية بمنظومتها إلى أزمات متلاحقة ، بسبب سياسات الاستبعاد وهجماتها ، أم إن الإشكالية تقع في انكفاء الذات الثقافية إلى الداخل ، الأمر الذي أدى إلى تأزمها وانغلاقها وتدهورها؟

يعيش عالمنا العربي حالة قائمة على مثلث وكأن ضلعه الأول يمثل حالة من عدم الرضا عن النفس ، والثاني هو إحساس بخطر دائم ، والضلع الثالث ممكن إن يشير إلى إحساس مهين بالذلة والعجز (36) .

ويمكن إن تكون هذه الصورة هي خير دليل على دلائل الانكفاء، فحالة عدم الرضا لا تكون بسبب محاولات الإصلاح والتجديد والنهوض نحو الأفضل وترك كل ما هو بالي ولا يواكب العصر والتقدم والعقلانية ، وإنما قد يكون إحساساً بالدونية التي تنتقص من ذات الإنسان ، فيمارس الفرد من خلالها ما يسمى بجلد الذات وليس نقدها ، إذ يقوم بالبكاء على ما مضى وانه لا سبيل له للنهوض وانه سيبقى كذلك على هذا النحو دون إصلاح أو تغيير ، الأمر الذي يؤدي إلى التراجع والتدهور دون محاولة نقد الذات من خلال محاولة تتبع كل أخطاءها والوقوف عليها والإتيان بالأفضل منها بعد إزالتها ، ومن الطبيعي إن الشعور بهكذا حال مدعاة لان يشعر الفرد بخطر دائم يتهدد كل حياته وتراثه وثقافته ، فهو يخشى على نسق سلوكياته وعلاقاته ومستقبله بعد ذلك كله وكيف سيكون ، ولإحساسه بالهوة الواسعة بينه وبين ما يرى يشعر بأنه في الدرك الأسفل من التطور والآخرين قد تقدموا عليه ، ونحن لا ننكر إن العولمة قد قلَّصت المسافات وأدخلت كل حديث وهزمت كل قديم وحاولت وتمكنت من إفشال كثير من الثقافات واستبعدتها ، لكن ذلك لا يعني إن انكفاء الفرد على ذاته لم يساعد تلك الإيديولوجية في مسعاها أو إن الانكفاء بحد ذاته قد مهَّد لدخول هذه الموجات الغازية، فلم تدخل العولمة بكل ما تحمله من فكر لو لا لم تجد الأرض ممهدة ومهيئة لتقبلها ، والذي يُترجم إلى ضعفٍ عقيدي وتراثي وتهرَّب من الواقع والتمسك بالمجهول والشعور بالدونية والضعف والانبهار بكل ما جاءت به الحداثة والعصرية ، وذلك كان كافياً للدخول إلى ثنايا هذه الثقافة واستدراجها ، لغرض تقطيع أوصالها وتهميشها من على خارطة الثقافات الإنسانية المتطورة، فالإحساس بالمهانة والضعف والعجز كافٍ لان يستبعد الفرد ويقتلعه من ذاته ويعود به إلى الوراء وبدرجاتٍ كبيرة .

إن أسباب التأزم والتي هي نابعة من الثقافة العربية ذاتها يرجعها الدكتور محمد عابد الجابري في قولهِ : إن ثقافتنا لم تستوعب بعد استيعاباً فاعلاً أسس الحضارة المعاصرة ، أسسها العلمية والتقنية ، لا على مستوى الفكر .... ولا على مستوى العمل ... ، وما نزال نعيش صدمة الحداثة على مستوى الفعل ورد الفعل اللذين يحركهما التنافر والتناقض ، وليس التعامل والتكامل ، إن هذا يعني إن ثقافتنا ما زالت محكومة إلى حدٍ بعيد بتبني التقاليد الجامدة ، وان هذه الأخيرة لم تترك بعد مكانها لبنى حديثة قادرة على أداء وظيفة البنى القومية (37) .

ومن المؤكد إن أسبابنا الذاتية أو الداخلية والتي تعود إلى أسس ثقافتنا وعدم قدرتها على مواكبة سبل تطور العصر ، قد ساهمت إلى حدٍ ما في تقوقعنا وانعزالنا وعدم إعداد العدة المناسبة لمقابلة الثقافات الوافدة ، إذ إننا لم ندرك بعد هل إن ما يفد إلينا نافع أم ضار ، فلم نملك العين الفاحصة القادرة على التمييز الدقيق ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن

الثقافات الغازية جاءت ووجدتنا لا نمتلك أية سلاح للدفاع عن ذواتنا ، فاستخدمت أسلحتها بسهولة بعد إن تهيأ لها ما أرادت في الدخول .

إن تمسكنا بثقافة عدم التغيير والركود قد جعلنا ندفع ثمن ذلك بأن داهمتنا العصرية فوجدتنا في سباتٍ عميق ، وان كانت مبتغياتها نسف كل تراثنا بذرائع انه قديم ولا يصلح للحياة ولا ينفعنا ، لكن لا يمكن لنا إن ننكر إن تراثنا بحاجة إلى عقلنة وبحاجة إلى إزالة ودفع ما هو غير صالح لمجاراة العصر بصورةٍ منطقية ، وليست بصورة تهميشية تحقق أغراض ثقافة العولمة بنسف جذورنا وإزالتها من مكانها .

فاليوم نكاد نشعر بالرهبة من تكنولوجيا الغرب ونتساءل ، هل لدينا القدرة على إن نفكر بالطريقة التي يفكرون هم بها ، ولماذا لا ننتج كما ينتجون ؟ هل إن القصور فينا أم من المحيط ؟

وبطبيعة الحال تجتمع كل هذه الأسباب معاً لتزيد من أزماتنا في مجتمعنا العربي ، لكن ما هو أهم هو انعدام الرغبة لدينا في المواصلة وتعلُّم الابتكار والقدرة على تقدم الحضارة وتطورها . فالعرب غير راغبون أو قادرون على الانصهار في حضارة العصر ، فهم يحلمون بالحصول والوصول إلى انجازات العلم والتكنولوجيا بشكل منفصل عن النظام القيمي ، ولا هم قادرون على الإتيان ببديل لذلك ، إذ إنهم يرفضون منطق العصر ويحنون إلى منطق الماضي (38) ، ويظلون متمسكين بتلابيب ذلك القديم حتى وان كان ضاراً ، ظناً منهم إن ذلك من شأنه إن ينسف جذور هويتهم ويحطمها ، لكنهم بالمقابل يريدون التقدم في بعض أوجهه لكن لا يعرفوا الطريق لذلك ، وبالتالي لا يواكبوا تطورات العصر ويكونوا بمنأى عنها ويمنعهم في ذلك قيمهم وتخاذلهم وانكفاءهم على وجوههم واستمرارهم في الرجوع إلى الوراء دون التقدم . ربما تكون علاقة العرب بثقافتهم علاقة سالبة ساكنة يسودها الخمول والخمود ، والنظام الثقافي العربي نظام منغلق ، مغرور لا يرى سوى نفسه ، ويؤمن بأنه نظام متكامل ومُلْهم ولا يستسلم للمساءلة أو الحوار أو النقد الحر ، وغير قادر على اكتشاف نقاط ضعفه (39) ، وحتى وان اكتشف نقاط الضعف هذه فلا يعزوها لعدم قدرتهِ على المواكبة وأمراضٍ يعاني منها في داخله ، وإنما يلقيها بصورةٍ غيبية على الحياة والقدر أو على الآخرين من الخارج، متناسين إن لهم الدور الأكبر في هذا التعثر والتقدم ، فنحن نعتقد إن ثقافتنا باقية كما هي ، ولا نعلم إن دوام الأصالة يحتاج إلى التجديد والترميم ، لئلا تتلاشى الثقافة وتضمحل ، لكننا لا نعترف ولا نقر بأننا نمتلك قصوراً واسعاً في مقابلة ثقافتنا بالتهميش وعدم إصلاحها وتنويرها . ولربما إن ثقافتنا العربية باتت ليست إلا ثقافة مدرسية ، أي منغلقة على محيطها ، وليس بأمكانها إن تنظر إلى الواقع نظرة واقعية مستقبلية ، وبالتالي يؤدي ذلك إلى اختفاء نظرة النقد والنقد العقلاني ، وتصبح غير قادرة على إن تهيأ المحيط المناسب لإنتاج المعرفة وتصديرها (40) .

ولعل ذلك الانغلاق قد لا تشعر به الثقافة العربية وتبرر عدم انغلاقها بأنها منفتحة على العالم وتأخذ كل ما يدور في ذهنية العصر الحديث ، لكن الانغلاق والتقوقع هو عدم إنتاج ثقافة صحيحة عقلانية تأخذ بالنافع وتدرأ الرديء ، والقادرة على تصدير كل المعارف والتعاطي مع الثقافات الأخرى ، والتي تتمكن من إعداد العدة لكل حالات الغزو ، والتي قد تتعرض لها ، وبذلك تكون بمنأى عن كل حالات الخطر ، وتكون قد هيَّأت مكاناً بارزاً لها في صدارة الثقافات المزدهرة والمتقدمة ، وتكون عصيَّة على التقوقع والانغلاق، وإنما منفتحة بتطورها وتقبلها للوافد بعقلانية دون انطواء . ويمكن القول إن مظاهر أزمة الثقافة عديدة ويمكن إن تظهر ابرز ملامحها كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري في سيادة القبيلة والسلطة والتعصب العقيدي في الفكر والريعية في الاقتصاد(41) .

ولربما ذلك موضوع يطول الغور فيه لأنه شائك ومعقد وهو كيف أثَّرت الروح القبلية في السلطة والتسلط وباتت هناك مؤسسات أشبه ما تكون أو ما تسمى بمؤسسات دولة القبيلة أو العشيرة ، إلا انه من الممكن التطرق لبعض حيثياته ، فدخول المحسوبية والمنسوبية والشللية إلى مرافق وثقافة السلطة ، لم يفسح المجال واسعاً لتلك الثقافة بأن تتقدم وتتطور ، لأنها محكومة بقيم وأحكام العشيرة وتصرفاتهم ومؤهلاتهم البسيطة التي قد لا تلاءم مواقعهم ، فتبدلت الموازين واختلفت وأصبحت السلطة عبارة عن مجموعة قرابية تريد خوض الحكم لصالحها ولصالح أفرادها فقط .

ولا يمكن إن ننسى ما جلبته التناقضات الفكرية العقيدية من تأزمات واضحة وما ألحقته بثقافتنا من وصمات متعددة من قبل جهات خارجية ، بسبب الاختلاف الكبير بين معتنقي الفكر داخل الثقافة العربية ، الذي قد يصل إلى حد الإقصاء والتهميش للآخر في الداخل قبل الخارج . ولعل الثقافة العربية تمتلك منظومة متغايرة من القيم ، إذ يوجد مثلاً الإيمان بقدرات العلم الذي يترافق مع الإيمان بالخرافة والشعوذة والسحر ، وحب المرأة يتناقض مع دونيتها وعبوديتها ، وقدسية الأم والنظرة إلى المرأة كموضوع للجنس ، والانتماء للعشيرة وللحزب وتعليم المرأة والنظرة الدونية لها (42) ، وكذلك احترام الحقوق والواجبات للإنسان يتناقض مع هدرها واحتقارها ، والمطالبة بالعلو والازدهار مع الانكفاء والتقوقع وجلب كل ماهو ضار ، والدعوة إلى الحرية مع تقييد ابسط الحريات الإنسانية ، كل ذلك وغيره خلق جواً غير ملائماً للتطور والازدهار ، جواً يشوبه نوعاً من التصادم وربما التصادمات الكبيرة والمتنوعة التي جعلت هناك موضوعات كبيرة جميعها تدور وتتحصن باسم واحد هو الثقافة العربية ، الأمر الذي هدَّد هذه الثقافة وما زال بشكلٍ مستمر وبدأت بوادر الانهزام والتقهقر واضحة على منظومتنا الثقافية ، والتي عجَّلت وساعدت على التدهور والانحطاط . يقول علي حرب " إن ما شهده العالم العربي من فشل في مساعي الوحدة ومشاريع التنمية ومن نزاعات وحروب وكوارث اجتماعية ووطنية في بعض مناطقه ودوله ، كل ذلك يبقي الأسئلة مشتعلة حول مهمة المثقف ودوره ، ويحمل على إعادة التفكير في علاقة المثقف بالدولة والمجتمع ، وهذه العلاقة كانت في أكثر الأحيان سلبية عقيمة وأحياناً مدمرة ، خصوصاً في البلاد العربية ، حيث تعاطى المثقف مع السلطة والسياسة والمجتمع بعقل طوباوي حالم ، أو بمنطق إيديولوجي مغلق ، مما دل على جهله بالعالم والواقع بقدر ما آل إلى فشله وعزلته (43) .

وهنا يبرز مظهر آخر من المظاهر التي ساعدت على انكفاء الذات الثقافية العربية وتأخرها ، وبالتالي استبعادها ، وهو ممارسة الفعل من قبل المثقف على الثقافة ، فمن البديهي جداً إن عماد الثقافة في تداولها وصنعها وتصديرها هم المثقفون الذين يصطفون في عداد النخب القادرة على تحويل المجتمع من وضع إلى آخر أفضل ، لكن عندما ينسلخ المثقف عن دوره الحقيقي سواءً بإرادتهِ نتيجة جهله بالدور المحوري والجوهري المناط به والملقى على عاتقه تجاه الثقافة والمجتمع أو رغماً عنه بفعل السلطة وإيديولوجياتها المتمثلة بتجيير ذلك المثقف لخدمتها أو خدمة أهدافها ، دون الأهداف الحقيقية التي وجد المثقف من اجلها ، الأمر الذي يجعل من ذلك المثقف أداة سلطوية تجلد بسوط الانهيار والتأخر والتراجع جسد الثقافة وتفرَّغها من محتواها .

لقد تحول الكثير من المثقفين العرب وبفعل انتشار المعلوماتية الواسعة إلى جيوشٍ سياسية تتناغم مع جهات سياسية ضد أخرى ، مستخدمة بذلك لغتها المتداولة وسلاحها الذي تمضي به إلا وهو العلم ، وذلك حسب نوع المصلحة التي ينخرطون لصالحها (44) .

وبطبيعة الحال ذلك لا ينطبق على كل مثقفٍ عربي ، وإنما من لم يعد العدَّة لبناء ذات مُحصَّنة تلقي على عاتقها مسؤولية بناء الذات الثقافية العربية ، فانجرفت في مهاوي رياح التغيير والإيديولوجيات المتنوعة التي طرقت بل حطَّمت أبواب الثقافات المختلفة . والمعضلة الأكبر في المثقف الواهن والمفرَّغ من مضمونه كمثقف ومن رسالته الثقافية ، هو انه قد لهث وراء المجد الخاص الزائل ، دون التفكير في مجد الأمة الطويل ، فتبرقع ببرقع العلم وبدأ يحلل ويُفند في أمور تخص هذا أو ذاك ، ولم يفعل ذلك إلا وفق السير وركب موجة التحزُّبات والتخندقات المصلحية ، التي لا تعير أهمية لشيء اسمه الرصيد الثقافي العربي ، وما الطريقة الواجب إتباعها لرفعته ونهضته دون المساس به وتراثه وبمبادئه لأغراض فئوية ومصلحية فردية . إن المثقف الواعي لهموم ثقافتهِ ومجتمعه ، ممكن إن يُنشأ ما يسمى بسلطة الثقافة ، والتي لا تنشأ على يد من لا يعي أمور وحقائق ومعطيات عصره كالمنجزات التكنولوجية والواقعية والعلمية ، ينشؤها المثقفون العضويون الذين يمثلون بثقافتهم قوة من التغير الكبير في الثقافة في مختلف بقاع العالم (45) .

فبعد إن يُفسح المجال من قبل مثقفي المجتمع بوهنهم وتقوقعهم وتنصَّلهم عن واقع حياتهم لمتسلطي المجتمع ، يُنشأ هؤلاء ما يسمى بثقافة السلطة ، أي السلطة التي يروِّج لمبادئها وإيديولوجيتها مثقفي المجتمع الذين تستأصلهم من رحم مواقعهم الحقيقية بسبب انكفاءهم وقوتها المدمرة ، لتجيرهم لصالح أغراضها وتحقيق كل ما تصبوا إليه .

وبذلك يغيب المشهد الثقافي العربي في المجتمع ، لان مثقفي ذلك المجتمع يمجِّدون المتسلط وينظِّرون لأهدافه ويمهدون لتأسيس وتثبيت أقدامه بشكلٍ اكبر في المجتمع ، يقابله حالة من التدهور وعدم العقلانية والضياع الواضح لمنظومة القيم والمبادئ ، الأمر الذي يخلق نوعاً من اللامعيارية الخفية التي تؤدي إلى تهدم وتقطع أوصال الترابطات الاجتماعية بسبب وهن المثقف وانهزامه إمام سلطة المتسلطين وديكتاتورياتهم . وهكذا فمشكلة المثقف هي ليست نابعة من عدم الأخذ بآرائه أو في سوء تطبيق مقولاته ، ولا من قبل ما مفروض عليه من سلطة ربما ، وإنما يعود الأمر لذات المثقف في عجزه عن الابتكار (46)، وانزواءه مع صفوف المهزومين أو مع الذين يعدُّون حمل الثقافة مهنة ليست إلا اكتساب الرزق والعيش بأية طريق كان ، متناسياً إن ما مكلفون به أعظم من إن يتخاذلوا عن أداء أدوارهم تجاهه .

لقد انشغل المثقف العربي المسلم خلال القرنين الأخيرين بالإجابة على العديد من الأسئلة التي تقع خارج حدود فكره وثقافته وتراثه ، إذ انشغل بتحديد إجابات إسلامية لأسئلة غير إسلامية واستهلك طاقة وفكراً كبيرين كان من الممكن إن يوظفهما للتقدم نحو الأمام (47) . وما ذلك إلا دليل على تبعثر فكر المثقف العربي وانشغالهِ بأمور خارجة ولا تمت لقضاياه العربية بأية صلة ، وإيغاله بالاهتمام بما هو ممثلاً للقشور دون مساس الواقع العربي ، لئلا يقوم فكره النوعي بالواقع العربي بأحداث نقلات نوعية تلتفت لكل ماهو غير عقلاني ، وبالتالي تهاجم كل من يحاول سلخ الثقافة العربية الأصيلة عن محتواها. وربما إن من الأمور التي تؤدي إلى وهن المثقف هي قوقعته على ما تركه الأجداد فقط ، حتى وان كان يقبل الصحة أو الخطأ ، فالتسليم بذلك معناه السير وفق قالب واحد دون التجرؤ على ممارسة آلية النقد البنَّاء التي تؤدي إلى فرز الصحيح من الخطأ (48) ، وذلك ما لوحظ وشخص على اعتباره من الأزمات الذاتية والداخلية التي أحطت من كيان الثقافة العربية وأدت إلى تقهقرها . إن المثقف العربي اكتفى فقط بالدعوة إلى التبني والتطبيق بالترويج والاستهلاك دون الخلق والتوليد ، توليد الأفكار وخلق المفاهيم حول المجتمع والعالم اللذان يحتاجان إلى تغيير وخلق الواقع بالفكرة (49) .

فلا يمكن إن يهضم ويتبنى المثقف كل ما يرد إليه ، والمفروض إن يكون هو صاحب ومنتج الأفكار القابلة للفهم والتقبّل ، وبقاءه على حال الركود وعدم تحريك العقل للخلق والأفكار والإبداع جعله بعيداً عن الواقع ، حيث إن إدراكه بأن إنتاجه الفكري الجديد الذي ممكن إن ينقل ويغيَّر واقع مجتمعه ، لربما جعله مهيئاً لإنتاج أفكاراً أكثر عمقاً في تحولات الواقع وتشابك الثقافات . ومن أزمات الانكفاء الأخرى التي عجَّت بها الساحات الثقافية العربية هي انحدار مستويات التعليم والركود القاتل في مستوى الإبداع والإنتاج الثقافي في كثير من الدول العربية ، فضلاً عن تفكك العرب وصعوبة تلاقيهم ثقافياً ، والعجز الواضح عن صياغة مشروع ثقافي عربي موحد يجمع العرب على حوار ثقافي أصيل ممكن إن يشرَّع لبناء قاعدة ثقافية فكرية قوية (50) . كما إن الاتصالات بين البلدان العربية هزيلة للغاية ، الأمر الذي يحد من إمكانيات الوحدة وتجاوز المسافات النفسية والاجتماعية بين العرب في أقطارهم المختلفة . فلكل قطر عربي مؤسساته الإعلامية الخاصة ونظامه التربوي وتوجهاته ومنشوراته وارتباطاته المنفردة مع الخارج ، وتمارس الأنظمة العربية الرقابة والمصادرة ليس فقط في الداخل بل بين الأقطار العربية ، فأصبح التبادل الثقافي محدوداً لدرجة شبه الانقطاع والعزلة (51) . ومن ذلك تبياناً واضحاً للانكفاء للداخل ، فالمجتمع العربي لا يمثل قطراً أو بلداً واحداً ، وإنما مجموعة أقطار يفترض إن تتآلف مع بعضها لتنتج خيوط ثقافية عربية متكاملة ، إذ إن انفصال وعدم اتصال بلد بآخر معناه الإتيان بالعزلة من الداخل ، فكيف سنستقبل الخارج وتحت أية ظروف، وذلك قد برز بشكلٍ واضح للعيان في ظهور المجتمع العربي كعبارة عن جزرٍ منفصلة الواحدة عن الأخرى ، بسبب جهل كثير من السياسات بضرورة التعاون والتكاتف لإنشاء منظومة ثقافية عربية قادرة على صد هجمات الوافد الأجنبي المتسارع . ولعل من السلبيات الأخرى والتي أدت إلى انكفاء الذات الثقافية العربية هي المبالغة بتعظيم الأنا وتهميش الآخر ، الأمر الذي يخلق إغراقاً في الذاتية والذي يصبح مع مرور الزمن حاجزاً يمنعنا من تشخيص سلبيات الذات وايجابيات الآخر (52) .

ويأتي التمجيد بالذات هذا بالعيش على منجزات الماضي دون فقه إن ذلك لا يتواءم مع الحاضر الذي يحتاج إلى التغيير والمواكبة والسرعة والانتقال العقلاني والمواجهة الصحيحة ، وعندما يتعاظم شأن هذه الأنا تصبح بمنأى عن الإنتاج ، لأنها تعد نفسها قد وصلت إلى أعلى المراتب والمراحل التي لا يستوجب معها العمل والإبداع والتفكير، لكن الحقيقة تقول غير ذلك ، إذ توضح إن هذه الأنا باتت مريضة متخلخلة وغير واقعية تعاني الوهن والتأخر ، فتحاول إن تتمسك بكل ما يوهمها بأنها مازالت واقفة على رجليها ، الأمر الذي يؤدي إلى وقوع ثقافتنا من خلال هذه الصور بين مد الانكفاء على الذات واعتبارها هي المتسيدة وليست بحاجة لأحد وجزر آثار ذلك على تهميش أصول الثقافة وانحطاطها .

ولا يخرج عن ذلك محاولة عدم القبول بواقعية وفعل الآخر ، وعدَّه عدوا ولربما ذلك في جوهره يدفع إلى عدم تمييز العدو الحقيقي، والذي قد يكون من داخل الذات نفسها . فهل ما تعرضت له الثقافة العربية من هجمات وغزوات ثقافية أدى إلى استبعادها ؟ أم إن انكفاء أفرادها وتقوقعهم وعدم فهمهم لواقع الحياة بصورة أفضل ، هو الذي استبعد الذات الثقافية العربية وسلخها عن محتواها ؟ ويقيناً من ذلك يمكن القول إن الانكفاء إلى الداخل وعدم ملائمة الواقع والضعف والتأرجح وعدم سلوك العقلانية هو ما أدى إلى استبعاد ثقافتنا العربية وجعلها في مهب ريح التقادمات المتسارعة .

رابعاً : ضرورات لابد منها : نحو إمكانية إعادة صياغة ثقافة عربية جديدة

لم تعد الثقافة اليوم مجرد فرض كفاية ولا مجرد حلَّية تمنح صاحبها نوعاً من الوجاهة ، كلا ... إن إعطاء الأولوية للثقافة في عصرنا أصبح شرطاً ضرورياً للانتماء لهذا العصر (53).

بعد إن أيقنا يقيناً تاماً بأن دائرة الاستبعاد الثقافي العربي التي أدخلنا أنفسنا فيها ، هي بسبب انكفاءنا على ذاتنا ووهننا وعدم تفاعلنا المناسب مع مجريات الحياة والتعامل معها بعقلانية ووفق رؤى منطقية وجادة ، لذا أصبح لابد لنا بعد إن حددنا الداء إن نضع على الأقل الدواء له . فهل بإمكاننا إعادة صياغة منظومة ثقافية جديدة قائمة على النظرة الفاحصة لكيفية التعامل مع مجريات الأمور في الحياة ؟

وعلى ماذا ينبغي لنا التركيز ومن أين نبدأ ؟

وهل لذلك جدوى واثر كبير في حل معضلاتنا الثقافية ؟

من الممكن إن يُنظر إلى الأمور وفق تسلسلات منطقية منظمة، أي نستخدم الجدية المنظمة في إيجاد حلول لذواتنا الثقافية ، دون محاولة الالتفاف على الحلول وإنما استخدامها بصورةٍ مباشرة تؤدي الغرض المطلوب منا والمؤمل .

إن أولى الخطوات الجادة لتحقيق النهضة في ذاتنا الثقافية العربية هو الشروع بالتفكير في تخليصها من تأزماتها والوعي بذلك وعياً جاداً منظماً غير قاصراً ، مستوعباً كافة متضمنات ومتطلبات ما يدور حول ذلك .

فيمكن البدء بتحقيق الوحدة الثقافية التي تتطلب درجة عالية من التكامل(Culturall Integration) ، والذي يعني إيجاد قدر معين من الانسجام الداخلي والارتباط الوظيفي بين عناصر الثقافة، لغرض المحافظة على استمرار الثقافة وإدامتها (54) . إذ إن تفكيك انساق الثقافة بعناصرها معناها الافتقاد إلى التكامل المطلوب لمواجهة التحديات التي تحاول إن تهمش الثقافة بما تحمله داخلها من عناصر وقيم تستند عليها . وبدل الصراع الثقافي المغذى بفلسفات التمييز الأجوف أو الانغلاق الأعمى أو الهيمنة الجائرة ، تطرح الإنسانية الفاضلة والداعية لعالم أفضل ، وتطرح مبدأ التكامل الثقافي كأساس وقاعدة تستندها الأمم في شبكة علاقاتنا الداخلية بما يرتقي بذاتها الوطنية الزاخرة بالتنوع الثقافي أو في شبكة علائقها الخارجية مع بقية الأمم الإنسانية ، بما ينتج أفضل صيغ التعايش المثمر والبناء الهادف (55).

إذ لابد إن نهيأ لثقافة متسلحة بالعلم والتمييز الصحيح وليس الخاطئ والتنوع الهادف والانفتاح مع حضارات الأمم ، أي الثقافة المرنة التي لا تنغلق تماماً ولا تنفتح بشكلٍ جارف ، الأمر الذي من شأنه إن ينتج أفضل الصور الثقافية والتي ممكن إن تُترجم إلى ازدهارٍ نوعي يأخذ له نصيب في المستقبل بصورة أفضل . فنحن يفترض بنا لمغادرة الأزمات التي تعتصر واقعنا العربي والإسلامي وتكبله بقيودٍ عدة ، هو تأسيس سياق اجتماعي – ثقافي قوامه التسامح والقبول بحالة التنوع الثقافي والاجتماعي ، لأنه السبيل إلى التطور حيث إن منع هذا السياق من تأسيسه من شأنه إن يولِّد كيانات أخرى ارتدادية وعنيفة تغلب عليها المصالح الخاصة والأهداف القائمة على التعصب والاستبداد (56) . ولعل هذا السياق لا يمكن تأسيسه دون الالتفات إلى قضية الوعي بضرورة وجود ذلك ، أي أهمية بناء سياق يعمل كمصدَّات أمان واضحة للمجتمع تقيه وتقي ثقافته من موجات التسطيح والتغريب والذوبان ، وتفتح الباب واسعاً أمام التلاقح والتبادل المعرفي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، مع مراعاة الدقة والحذر من الإيديولوجيات المغلفة بغطاء التعاون والتبادل وفي جوهرها عنيفة وتطمح لإقصاء الآخر . لقد بات الحوار الثقافي العربي – العربي مدخلاً أساسياً للتغيير والإصلاح وبناء مجتمعاً عربياً ناهضاً وجديداً (57) . وربما يكون التأكيد على أهمية الحوار العربي – العربي قد جاء من لسان حال المشهد العربي الذي ينوء بتأزمات تنم عن مصالح متقطعة بين المنظومة العربية ذاتها ، وعدم تلاقي مصالح وعدم انسجام في الوحدة والأهداف والثقافة والهوية ، الأمر الذي يستدعينا لإعادة النظر بالعلاقة العربية – العربية في بادئ الأمر ثم الدخول إلى تصحيح مسار الحوار الثقافي بيننا ، إذ يجب إن يكون حواراً سلمياً قائماً على أهداف جمع المجتمع

العربي ككتلة واحدة موحدة الثقافة وقوية الإرادة وذو هوية بارزة وجذور متماسكة ، للإعداد إلى هدفٍ ابعد وهو كيفية حماية المنظومة العربية بعناصرها من أخطار زحف الثقافات والكيانات الأجنبية الأخرى ، وكذلك لتحقيق سموٍ عالٍ لهذه الكتلة العربية لتضاهي باقي الحضارات ولتعيد أمجاد الأجداد بالفعل والانجازية وليس فقط على مستوى تذكّر الماضي والتغني بالأمجاد التي أكل عليها الدهر وشرب .

إن الحوار الثقافي بين العرب يجب إن يكون بعيداً عن التعصب والإقليمية والمناطقية والطائفية والقبلية ، وان يكون التعاون بأسم المجتمع وليس بأسم وحدات ذلك المجتمع ، وان يبتعد عن المصلحية التي باتت طاغية ومعضلة بحق لمجتمعنا العربي . ويمكن إن تكون إحدى الاستراتيجيات الفعالة لنهضة المنظومة الثقافية العربية هي إطلاق الحرية الفكرية الثقافية التي لها أهمية في تحقيق وحدة الأمة ، إذ لا يمكن لفكر أبناء هذه الأمة إن يتوحد إلا على ارض الحرية ، ولا يمكن صناعة الحضارة والازدهار إلا إذا أنتجنا الفكر (58) .

فإنتاج الفكر ليس بالمهمة السهلة ولكنها ليست مستحيلة ، إذا ما هيأت لها الظروف الملائمة للإبداع وصناعة الأفكار ، ولكن أية إنتاج فكري ثقافي نبتغي ؟

من المؤكد إننا نبتغي الإنتاج الهادف النوعي والذي من المؤمل إن يغير حالة الأمة من وضعية أسوأ إلى أفضل ولملمة شتات التمزقات التي أطاحت بمنظومتنا الثقافية العربية ، كما إن ذلك الإنتاج الفكري بحاجة إلى أرضية خصبة تزرع فيها أصول الحرية ومراعاة القوة الإنسانية ومبتغيات العدالة الاجتماعية . كما إن الإمكانيات العربية الذاتية والأصيلة ستظل من أهم المؤهلات وآليات الحفز والتأييد للإسهام والتفاعل لتحقيق الرقي والتطور والتقدم في ظل النظام العالمي الجديد (59) . إن الثقافة العربية يجب إن تتحرر من عبأ السياسات الرسمية ، فبوجود العنف والتسلط لا يمكن وجود ثقافة متجددة ومتطورة (60) ، إذ إن المجتمع العربي عرف بالحاضنة الرئيسة لتكوّن الدكتاتوريات التي مهّدت لإنشاء قوانين تبث من خلالها طغياناً على شعوب المجتمع العربي ، الأمر الذي جيَّر معه الثقافة لصالح السلطة الدكتاتورية، والتي اتخذت منها سلاحاً آخر يُضاف لما تملكه من عوامل تدافع بها عن تسلطها وثباتها وانتزاعها للحياة المدنية من المجتمع ، فتصبح الثقافة أداةً طيعة بيد السلطوي والحاكم ، وبذلك تختفي معالم الثقافة التي تميزها ويسود عليها ملامح الضعف والتبعية والتصدع ، وبجعل المنظومة الثقافية متحررة من تسلط الأنظمة الجائرة ، فذلك يفسح المجال واسعاً لإنشاء ثقافة رصينة ممكن إن تنهض وتساعد على إنهاض المجتمع والتخلص من أمراضهِ.

إن الوحدة الثقافية في الوطن العربي لا تعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط الثقافية الأخرى المتعددة والمتعايشة عبر تأريخنا المديد داخل الوطن العربي الكبير ، ولا حتى داخل كل إقليم من أقاليمه ، بل العكس صحيح إذ لابد من توظيفها بوعيٍ في اغناء وإخصاب الثقافة القومية وتطويرها وتوسيع مجالها الحيوي (61) .

فالوحدة الثقافية لا تعني التقسيم والتجزئة لباقي المكونات الأخرى ، وإنما تشير إلى التكامل مع اختلاف الأساليب في الدخول إلى المنظومة التكاملية ، والتي هي ضرورية جداً في تحقيق الرقي الحضاري العربي وترصين أسس المجتمع العربي الأصيلة . ولعل النهضة الثقافية المطلوبة هي النهضة التي تعني إدراك الواقع بحرية وإبداعية ، واستيعاب ما يضمه من تراث وجدة ، حيث إن مبدأ الخصوصية القائمة على مطلب الاستقلال والسيادة والتمسك بالجذور والهوية لا يقل أهمية عن مطلب المعاصرة المطلوب في المجتمع العربي (62) ، إذ لا يمكن تخيّل إن النهضة الثقافية العربية مشروطة بفصلها عن تراثها وأصالتها ، والتمسك بشرط العصرية والحداثة ، وإنما قد تجتر الثقافة العربية

أصولها من الماضي مع مراعاة النظرة الفاحصة والدقيقة لما يلاءم العصر المتسارع وما يمكن إضافته له وإزالة بعض الأشياء الدخيلة وغير المقبولة لديه . فتكامل ونهضة الثقافة العربية لا يتم إلا بجعل الماضي في كثير من أساساتهِ الصحيحة منطلقاً لعصريةٍ جديدة ، لكن ذلك لا يعني التمسك بكل ماهو قديم بحجة الخوف على التراث ، وإنما ما يتلاءم واطر التعامل المنطقية والعقلية في الحياة وما له أهمية وواجب الالتزام به في الحياة المستمرة نحو التقدم والتطور ، دون التلكؤ والتأرجح في التعامل مع الماضي بكليتهِ والحاضر بكليتهِ أم لا . لذلك فالمشروع الثقافي النهضوي لا يعني تنكره للعناصر الأصيلة في الهوية والتراث والتأريخ ، حيث إن نهضويته لا تتأتى من ركود عناصره الأصيلة كما يحلو لبعضهم تصويره ، وإنما يتأتى من الفشل في وعي هذه العناصر من قبل رواد التحديث أو في التقوقع عليها من قبل رواد الأصالة ، أو في العجز في تفعيلها لخدمة الأغراض الجديدة للمجتمع (63) .

وهنا يمكن إدراك إن الإشكالية لا تتوقف عند حد الجهل بأمور الحياة والتمسك بكل ماهو قديم حتى وان كان خاطئاً من قبل المتمسكين بالثبات والأصالة على حد تعبير مناهضي هذا الاتجاه ، وإنما قد تشير في طرفها الآخر إلى معضلة عدم النظرة الواعية لما تعنيه الأصالة وضرورة التعامل معها بما يتناسب مع كونها ثقافة ولها عناصرها الأصيلة .

ولذا لابد للمشروع الثقافي المؤمَّل إن يعي شروط الواقع وإمكانات النهضة وأدوات التغيير ، وفي العمق من ذلك مقومات الهوية وعناصر القيم المرجعية وطبيعة الواقع المحتضن للمشروع الثقافي وشدة الوعي للحداثة ونتاجاتها الايجابية ، وإلا سيهزمه الواقع ذاته ، فأي جفاء أو خصومة أو محاربة للعناصر الأصيلة للواقع ، وأي تخلُّف في وعي الحداثة سيدخل الواقع والمشروع في نزاع استئصال متبادل ، وهذا ما يقضي على أي مشروع ثقافي نهضوي (64) .

ويمكن إن تكون المسألة الضرورية جداً هي مسألة الذات العربية وكيفية استخلاص المقومات الأصيلة لها ، بحيث يؤدي ذلك إلى إيجاد ذات غير واضحة أو مجزئة أو متقهقرة تساعد على تبلور ذات ثقافية عربية قادرة على المضي باستمرار لمواكبة صيرورات العصر الحديث وما ينتج عنه من تجاذبات . لذلك إن بدأنا فيبتغي البدء بذاتنا ، حيث إن حوارنا مع ذاتنا يفترض إن يسبق الحوار مع الآخر أو يسيران جنباً إلى جنبٍ ، على أساس الإيمان الراسخ بالتعددية ومعرفة الذات ونبذ التفرقة وكل أشكال التمييز العرقي أو الديني أو القبلي ، كما يهدف الحوار مع الذات المحافظة على الخصوصية الثقافية دون الابتعاد عن الثقافة الكونية (65) . فلا يمكن إن نبدأ من ساحات غيرنا أو من تفكير الآخر ، وإنما من أسس قواعدنا والتي تكون بمعرفة حدود ذواتنا ودرجة وعيها ، لما نقوم به ونعد له ، لتخليصها من كل ما قد يشوب العمل مع الآخر أو الإعداد لتهيئة المنظومة الثقافية العربية . وذلك بحد ذاته محاولة سليمة وصحيحة تبغي تخليص الذات العربية من كل رواسب التأخر والتصدع والقوقعة والانغلاق بكافة أنواعه وبناء ذات قادرة ومهيئة على التعاطي مع الذوات الأخرى في كيفية بناء منظومة ثقافة عربية قادرة على إكمال مسيرة الرقي والتطور والتقدم ، الذي تعيشه كثير من ثقافات العالم . إن الحفاظ على الذات يتطلب معرفتها وفهمها ، لا التقوقع والانغلاق عليها ، وعندما نعرف ذواتنا ونفهمها سنحترمها وننصفها ونقدِّرها حق تقدير في الحياة (66) . لذلك فالأمر يتطلب لمعرفة الذات هو إما مواجهتها وشن الحرب عليها ، أو التوهُّم بحصانة الذات التي لا يطالها النقد ، وبالتالي تحقيق الضعف والضمور والتحول إلى عالم لا يعرفه احد ولا يتعامل مع احد ، ولا يتذكره احد هو عالم منسي موبوء وتم إقصاءه (67) .

لذا فلا يذهب الظن بأن فهم الذات هو التضليل عليها وعلى تأزماتها ، وإنما مواجهتها بتبيان كل مظاهرها غير السوية ، والتي لا تصلح لإقامة نهضة ثقافية عربية ونقدها نقداً لا يؤدي بها إلى التقوقع والانعزال ، وإنما يساهم في زيادة

فرص التحدي لديها ، وصلابة في مواجهة المواقف وكيفية ترك كل الأمور التي تعيق أسس التقدم والنهوض ، والتمسك أو العمل على استحضار كل اطر الازدهار والانطلاق نحو العصرية ، دون إيهام الذات بأنها لا غبار عليها ، الأمر الذي يقوّض القابليات ويضع حاجزاً بين معرفة أصول التطور وبين البقاء راكدة لا تقوى على النهوض . وهكذا يجب الخروج بالذات من حالات الاستسلام لموحيات الانهزام والتسليم بوضع الاستسلام والدونية والتخلف ، إلى حالة نتحمل فيها تبعات تلك المواجهة ونقوم بتهيئة الذات على تملك المواجهة (68) . فنحن يجب علينا إن نزيل كوابيس الخوف التي تصوَّرنا وقد سحقتنا الثقافات الأخرى ، وينبغي لنا العمل ومواجهة الأمر مع كل الضرائب التي ممكن إن ندفعها لقاء ذلك ، ولم يكن الغرض من ذلك إلا بناء ثقافة خالصة تقوم على شد العزم لبناء مجتمع سليم خالي من كل المعوقات . وتأتي أيضاً مهمة المثقف الواعي في إنضاج الثقافة مناعةً وصلابةً وإبعادها عن المخاطر والمنزلقات المتمثلة بالتسطيح والتغريب والتشتت ، فمهمة ذلك المثقف باتت ضرورية وجوهرية ، لأنه يمثل عماد الثقافة وسبب رئيس في صعودها أو هبوطها إلى قيعان العزلة والانغلاق والتهميش. إن المثقف اليوم أمام اختبارٍ للكشف عن الحقيقة في مجتمعنا العربي ، إذ يفترض منهم إن يكونوا أمناء على ما وكلوا به من احترام الحقيقة ونقد الذات والسلوك وفق المبادئ السليمة (69) .

فهم مطالبون بأن يدركوا استحقاقات تميَّزنا الثقافي ، الذي هو حصيلة حقل تأريخي عميق ومتنوع ، وضرورة التخلي عن العقلية والمنهجية التي تزدري وضعنا وتميز الآخر عنا (70) . إذ إن ما قتل الثقافة العربية وهي في أطوار ازدهارها هو انفصال المثقف عن ذاتهِ الثقافية الأصيلة ، التي تقوم على تعزيز القدرات العربية وتكوينها وتحصينها وبث روح المثابرة فيها ، ولجوءه إلى الهروب من الواقع والانزواء وراء الأضواء خوفاً من التهام وسحق الثقافات الأخرى ، وممارسة جلد الذات بتحفيزها وإشعارها بالدونية واستحالة الوصول الى ما نتمنى ونطمح إليه ، الأمر الذي اوهن ثقافتنا وجعلها تأن من ويلات الاستسلام والتبعية للسلطة والذوبان في أيديولوجيات الآخر ونفاذ المحتوى ، لذا الأمر يتطلب مثقف يعيد صورة الثقافة العربية المزدهرة إلى الأذهان واضعاً في حساباته إن عليه تمييز ثقافته ولا يكون ذلك بالشعارات والكلام فذلك سهل ، وإنما بالعمل الذي يدفع بالثقافة العربية إلى الأمام ويبعدها عن السقوط والتدهور ، وذلك بحد ذاته يحتاج إلى شخصية مثقف واعية وملمة بذاتها أولا ثم مسألة واقع المجتمع وثقافته ثم كيفية جر الثقافة العربية إلى قمم التقدم والأصالة والازدهار . فالأجدى بالمثقف إن يشتغل على ذاته وفكره ، لكي يتحرر من أوهامه النخبوية ، فالنخبة المميزة والقيادة المستنيرة تقوض مهمة المثقف من أساسها . ذلك إن مفهوم النخبة أو الطليعة يعني إن هناك جماهير وقطعاناً بشرية ، والقطيع هو مادة الأنظمة الكلاَّنية والأصوليات الفاشية وآلة المشاريع الطوباوية المستحيلة (71) .

ولكي يعلم المثقف إن مهمته ليست محصورة بذاته وإنما لمجتمعه ، بذلك سيتحرر من ضغوط وقيود الذاتية الجامحة التي قد تدفع الفرد في كثير من الأحيان إلى المغالاة في محاولة كسب المصالح له ، الأمر الذي يحيل عمل ذلك المثقف ووعيه نحو مسألة واحدة فقط هي كيفية إعلاء شأن الذات الثقافية العربية ومنعها من التسطيح . نحن نريد لثقافتنا العربية مثقفين متحررين من تبعات النفس الطامعة والجامحة ومتحررين من أتون السلطات وتجييرها لهم وقادرين على إعادة صياغة منظومة ثقافية جديدة قادرة على الانجاز والإبداع والتفوق ، وبعيداً عن التقهقر ومحاولة الشعور بالدونية وعدم القدرة على مجاراة ماهو وافد ومتسارع في الحياة . من المؤكد نحن اليوم بحاجة إلى الابتعاد عن منطق الثنائيات ، أنا وأنت ، مؤمن أو كافر ، تقدمي أو رجعي ، والمثول إلى منطق آخر قائم على التعددية والعقلانية يستوعب وجود الحوار والتواصل والأفكار المتنوعة ، الأمر الذي يساهم بجدية في تحمل المسؤوليات وتحديد المصير المشترك (72) .

فأن أردنا لثقافتنا العربية إن لا يعتريها صعوبات ناسفة لكل انجازاتها ، إن نبتعد كل الابتعاد عن مسألة التمييز وإلغاء الذوات الأخرى ، والإيمان بحق التنوع والاختلاف مع التوافق المطلوب في كل الأحوال لإدارة المجتمع بشكل منطقي وعقلاني . ومن مهام الدفاع عن ذواتنا الثقافية واغناءها بالتميز هو كسر حدة انبهارنا بالغرب ومقاومة قوة جذبه ، برده إلى حدوده الطبيعية ، والقضاء على السلطة القائمة عنده بالسيطرة على العالم (73) .

فنحن مازلنا نأن من ويلات التشبه بثقافة الغرب وتلبَّس عناصرها وانبهارنا بحضارتهم وانجازاتهم ، الأمر الذي يخلق حالة من المقارنة بيننا وبينهم ، مما يدفع إلى الشعور بالدونية والقلق حيال مستقبلنا ، وحقيقة لا يتم التفكير بجدية بكيفية إدراك المستقبل دون أزمات ، وإنما نبدأ بالتفكير بصورة مستقبلنا بعد إن نتوارى عن الأنظار ونعود القهقرى بسبب بعدنا الكبير والبون الشاسع بيننا وبين انجازاتهم ، لذا يجب علينا إن نميز أنفسنا بالعمل والوعي الجاد، لغرض التغني بحضارتنا وفق انجازاتها ، وبذلك نترك الانبهار بالغرب لأنه لم يعد له أية حاجة تذكر بعد إن تصبح على مقربة من انجازات الثقافات الأخرى بما نمتلكه من رغبة وإصرار على المواجهة . إن مشروعنا في الدفاع عن هويتنا وبناء ذات ثقافية قادرة ومتميزة ليس بالأمر الهين ، وهو ليس مستحيلاً ولكنه صعباً ، إذ يحتاج إلى تشخيص دقيق وعقلاني يزخر فيه الوعي بشكل كبير ، لامتلاك القدرة على الوقوف بجدارة في وجه الأزمات وإعادة إنهاض ثقافتنا العربية مرة أخرى ، بإعداد العدة لذلك بتكاتف عمل المجموع العربي من مثقفين وأفراد ومجتمع لمحاولة الحفاظ وتعزيز وترصين اطر الثقافة العربية وصد هجمات الاستبعاد والإقصاء الراغبة بتحطيمها .

لذا وبعد هذا الخوض في شأن الذات الثقافية العربية ، لا يمكن إلا إن نقول إن كان هناك استبعاد قد تعرَّضت له منظومتنا الثقافية العربية وبضمنها ذاتنا الثقافية ، فأن ذلك الاستبعاد والإقصاء لم يتأتى إلا من خلال وجود أرضية واسعة وخصبة ساعدت ومهدت لقيام ذلك الاستبعاد ، إلا وهو الانكفاء الذي استفحل في المجتمع العربي وعزز من إيديولوجية صنَّاع الاستبعاد والإقصاء، الأمر الذي أحال ذاتنا الثقافية إلى ذات مأزومة تقلَّبها الانتكاسات وتقطَّع الأوصال والانتكاسات .

الخاتمة

لم تكن منظومتنا الثقافية العربية ذات تأريخ منكفئ ومتقوقع على ذاته ، وإنما ازدهرت واستمرت بالتقدم إلى إن تأزمت وتصدَّعت وأصابها التسطيح والتغريب ، ولم يكن ذلك إلا بمقوماتٍ عجَّلت بهذه الانتكاسات ، إذ حاولت إيديولوجيات الغرب وثقافاته النيل من ثقافات العالم بأسره وبضمنها الثقافة العربية ، التي تعرَّضت لسيلٍ هائل من الغزوات والتصدَّعات والتي كان من المؤمَّل منها إن تساهم في استبعاد الذات الثقافية العربية وإفراغها من محتواها وتمزيق هويتها ، وفعلاً قد ساهمت بشكل كبيرٍ في ذلك، إلا إن ذلك لم يكن له إن يحصل ويعمل على استبعاد الثقافة إلا بوجود مجتمعٍ منكفئ على ذاته متقوقع منعزل عن الواقع ساهم بشكلٍ جدي في استبعاد الثقافة في كثير من أصولها.

وما الخروج من هذا المأزق إلا بمحاولة إعادة صياغة منظومة ثقافية عربية قائمة على تحديد ملامح الذات الثقافية العربية ومعرفة عناصرها وممارسة نقَّدها لا جلَّدها وتقديس مهمة المثقف لدوره المحوري في اغناء الثقافة أو إنهاءها ، وضرورة الانفتاح وفهم صيرورات الواقع والآخر وكيفية التعامل معه وفق الأطر التي تريد التنوع والاختلاف لا التناحر والفئوية والمصلحية ، وقطعاً ذلك ممكن إن يُعيد بريق ثقافتنا العربية مع كثير من المميزات .

المصادر

1. بركات ، د. حليم ، 1996 ، المجتمع العربي المعاصر – بحث استطلاعي اجتماعي ، ط5 ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص13 .
2. Kottak, C. and Conrad, P. 2009. Cultural Anthropology, 11th ed., New York, McGrow – Hill Higher Education, 63 pp.
3. Schaefer, R.T. 2002. Study Guide for Use With Sociology, 10th ed., New York, McGraw – Hill Higher Education, 32 pp.
4. العجاتي ، محمد احمد ، 2003 ، تطور الثقافة الرأسمالية وتأثيرها في الثقافة العربية ، من بحوث كتاب الثقافة العربية – أسئلة التطور والمستقبل ، مجموعة باحثين ، سلسلة كتب المستقبل العربي 29 ، ط1 ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص63.
5. بركات ، د. حليم ، مصدر سابق ، ص322 .
6. العجاتي ، محمد احمد ، مصدر سابق ، ص63 – 64 .
7. العالم ، محمود أمين ، 2003، المشهد الفكري والثقافي العربي ، من بحوث كتاب الثقافة العربية – أسئلة التطور والمستقبل ، مجموعة باحثين ، سلسلة كتب المستقبل العربي 29 ، ط1 ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص12 .
8. المصدر نفسه ، ص12 .
9. عرسان ، د. علي عقلة ،1997، الشخصية الثقافية العربية – الهوية والغزو ، دمشق ، مجلة الفكر السياسي ، العدد الأول ، اتحاد الكتاب العرب ، ص48 .
10 . غليون ، د. برهان ، 1986 ، مجتمع النخبة ، ط1 ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، ص77 .
11. الكفري ، د. مصطفى العبد الله ، 2003 ، العولمة الهاجس الطاغي في المجتمعات العربية المعاصرة ، دمشق ، مجلة الفكر السياسي ، العددان 18 – 19 ، اتحاد الكتاب العرب ، ص246 .
12. العالم ، محمود أمين ، مصدر سابق ، ص15 .
13. المصدر نفسه ، ص16 .
14. المصدر نفسه ، ص19 .
15. وطفة ، علي اسعد ، 2003 ، الثقافة وأزمة القيم في الوطن العربي ، من بحوث كتاب الثقافة العربية– أسئلة التطور والمستقبل ، م ط1 ، ، بيروت ، مجموعة باحثين، سلسلة كتب المستقبل العربي 29 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص28 .
16. المصدر نفسه ، ص33 .
17. حسين ، عدنان السيد ، 2003، متطلبات الأمن الثقافي العربي " دراسة في الاستراتيجيات والسلبيات ، من بحوث كتاب الثقافة العربية– أسئلة التطور والمستقبل ، ط1، بيروت ، مجموعة باحثين ، سلسلة كتب المستقبل العربي 29 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص301 .
18. وطفة ، علي اسعد ، مصدر سابق ، ص30 – 31 .
19. الزيدي ، المنجي ، 2003 ، الثقافة والمال : دراسة في مستقبل التنمية الثقافية في الوطن العربي ، بيروت ، مجلة المستقبل العربي، العدد 293 ، السنة السادسة والعشرون، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص60 .
20. عبد الدائم ، عبد الله ، 2003، مستقبل الثقافة العربية والتحديات التي تواجهها ، ط1، بيروت ، من بحوث كتاب الثقافة العربية– أسئلة التطور والمستقبل ، مجموعة باحثين ، سلسلة كتب المستقبل العربي 29 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص290 .
21. الجابري ، د. محمد عابد ، 2006، المسألة الثقافية في الوطن العربي ، ط3 ، بيروت ، سلسلة الثقافة القومية (25) – قضايا الفكر العربي (1) ، ص171 .
22. السوسي ، د. محمد ، المواطن بين الاستبعاد الاجتماعي والتماسك الاجتماعي ، مقال منشور على شبكة الانترنيت:
Ar-ar.facebook.com/note.php?note_id=436865469743
23. وطفة ، علي اسعد ، مصدر سابق ، ص42 .
24. غليون ، د. برهان ، مصدر سابق ، ص78 .
25. العادلي ، حسين درويش ، 2005 ، الثقافة العراقية بين الاستلاب أو الانغلاق أو الانفتاح ، بغداد ، مجلة النبأ ، العدد 74 ، السنة العاشرة ، مركز المستقبل للثقافة والإعلام ، ص17 .

26. المصدر نفسه ، ص16 .
27. الخرسان ، جمال ، 2005 ، مع الغزو الثقافي من جديد " رصد للواقع وخطوات في طرح البديل ، بغداد ، مجلة النبأ ، العدد 74 ، السنة العاشرة ، مركز المستقبل للثقافة والإعلام ، ص50 .
28. ضاهر ، مسعود ، 2006 ، حوار العرب مع ثقافات عصر العولمة " الواقع والآفاق المستقبلية " ، الكويت ، مجلة العربي ، العدد 576 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص126 .
29. العالم ، محمود أمين ، مصدر سابق ، ص13 .
30. ضاهر، مسعود ، مصدر سابق ، ص126 .
31. عرسان ، د. علي عقلة ، 1999، العولمة والثقافة ، دمشق ، مجلة الفكر السياسي ، العددان الرابع والخامس، اتحاد الكتاب العرب ، ص216 .
32. عبد الوهاب ، كنعان خورشيد ، 2000، عولمة الثقافة : المخاطر وكيفية المواجهة ، بغداد ، مجلة دراسات اجتماعية ، العدد 6 ، السنة 2 ، بيت الحكمة ، ص58 .
33. ضاهر، مسعود ، مصدر سابق ، ص127 .
34. العالم ، محمود أمين ، مصدر سابق ، ص20 .
35. عبد الوهاب ، كنعان خورشيد ، مصدر سابق ، ص59-60.
36. أبو المجد ، د. احمد كمال ، 2004 ، حوار الحضارات: الإسلام والغرب ، ط1، بيروت ، من محاضرات كتاب الحضارات والمشهد الثقافي ، مؤسسة عبد الحميد شومان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص52
37. العجاتي ، محمد احمد ، مصدر سابق، ص67 .
38. كرم ، د. انطونيوس ، 1982 ، العرب أمام تحديات التكنولوجيا ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 59،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص116 – 117 .
39. الحارثي ، د. فهد العرابي ، 2009 ، أزمة الثقافة العربية ...علل قديمة وأخرى جديدة ، بحث منشور على شبكة الانترنيت:
www.asbar.com/ar/contents.aspx?c=654 .
40. عودة ، ناظم ، 2005 ، مشروع الإصلاح العربي بين شروط الغرب وذهنية الشرق ، بغداد ، مجلة النبأ ، العدد 76 ، السنة الحادية عشرة ، مركز المستقبل للثقافة والإعلام ، ص11 .
41. العجاتي ، محمد احمد ، مصدر سابق، ص68 .
42. وطفة ، علي اسعد ، مصدر سابق ص32 .
43. حرب ، علي ، 2004 ، أوهام النخبة أو نقد المثقف ، ط3، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ص145 .
44. قرم ، د. جورج ، 2006، الانهيارات العربية من المسئول ، الكويت ، مجلة العربي ، العدد 566 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص17 .
45. العالم ، محمود أمين ، مصدر سابق ، ص23 .
46. حرب ، علي ، مصدر سابق ، ص148 .
47. السادة ، السيد مصطفى ، 2000، الخطاب الثقافي بين أصالة المفهوم وهامشية الطرح ، بغداد ، بحث منشور في مجلة النبأ، العدد 49 ، مركز المستقبل للثقافة والإعلام ، على شبكة الانترنيت :
www.annabaa.org/nba49/index.htm
48. محمد ، د. مازن مرسول ، 2009، الانتلجنسيا العربية : رؤية سوسيولوجية في ميزان التحولات الاجتماعية والسياسية ، ج2، بغداد ، بحث منشور في المؤتمر العلمي السادس عشر ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ص1048 .
49. حرب ، علي ، مصدر سابق ، ص146 .
50. ضاهر ، مسعود ، مصدر سابق ، ص126 – 127 .
51. بركات ، د. حليم ، مصدر سابق ، ص54 .
52. الرفاعي ، عدنان، 2002 ، المنظومة الثقافية العربية ومواجهة التحديات، دمشق ، من بحوث الندوة السنوية لجمعية البحوث والدراسات ، العرب وتحديات المستقبل ، اتحاد الكتاب العرب ، ص148 .
53. الجابري ، د. محمد عابد ، مصدر سابق ، ص230 .
54. وطفة ، علي اسعد ، مصدر سابق ، ص 37 .
55. العادلي ، حسين درويش ، مصدر سابق ، ص17 – 18 .

56. محفوظ ، محمد ، 2003، الواقع العربي وتحديات المرحلة الراهنة ، ط1، بيروت ، دار الإشراق العربي ، ص97 .
57. ضاهر، مسعود ، مصدر سابق ، ص129 .
58. الرفاعي ، عدنان ، مصدر سابق ، ص150 .
59. الكفري ، مصطفى العبد الله ، مصدر سابق ، ص242 .
60. حسين ،عدنان السيد ، مصدر سابق ، ص307 .
61. العجاتي ، محمد احمد ، مصدر سابق، ص78 .
62. المصدر نفسه ، ص74 .
63. العادلي ، حسين درويش ، مصدر سابق ، ص15 .
64. المصدر نفسه ، ص15 .
65. ضاهر ، مسعود ، مصدر سابق ، ص129 .
66. احمد ، د. عزت السيد ،2000، انهيار مزاعم العولمة : قراءة في تواصل الحضارات وصراعها ، دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ص132 .
67. الساير ، صلاح ، 2002، دعوة صريحة لجلد الذات العربية : تسقط ....أو نسقط ، الكويت ، مجلة العربي ، العدد 529 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص52 .
68. عرسان ، د. علي عقلة ، مصدر سابق ، ص224 .
69. زريق ، د. قسطنطين ،1998، ما العمل ؟ حديث إلى الأجيال العربية الطالعة ، ط1، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص93 .
70. العادلي ، حسين درويش ، مصدر سابق ، ص16 .
71. حرب ، علي ، مصدر سابق ، ص149 .
72. معروف ، فوزي ، 2001، في المواجهة الثقافية ، دمشق، مجلة الفكر السياسي ، العددان 13 – 14 ، اتحاد الكتاب العرب، ص151 – 152 .
73. حنفي ، د. حسن ، 1999، الثقافة بين العولمة والخصوصية ، دمشق ، مجلة الفكر السياسي ، العددان الرابع والخامس ، اتحاد الكتاب العرب ، ص248 .